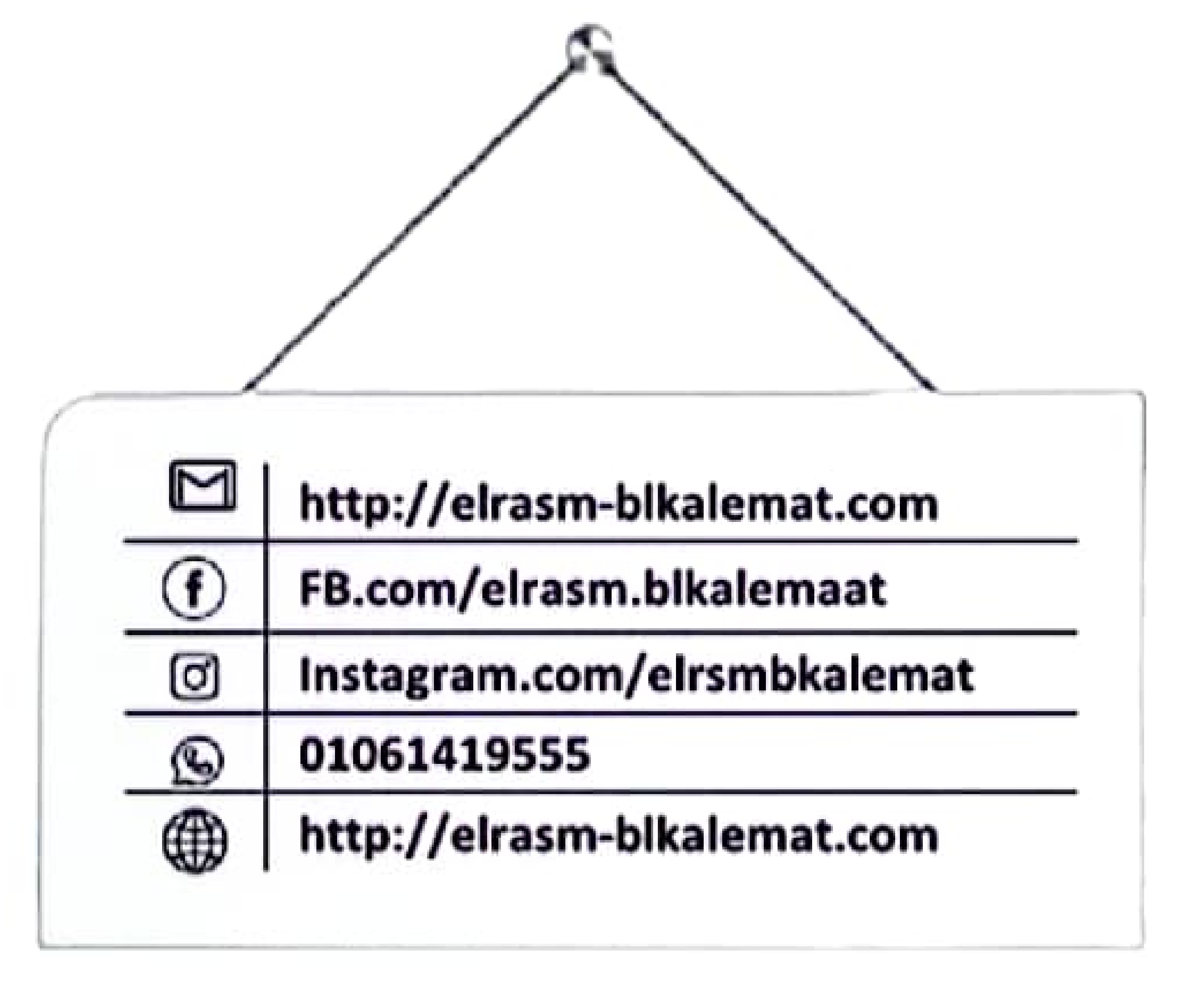
عبد الرحمن حجاج

كوابيس قبل النوم

البداية

دار الرسم بالكلمات



عنوان الكتاب:	كوابيس قبل النوم (الجزء الأول).
المؤلف:	عبد الرحمن حجاج.
الطبعة الأولى:	٢٠٢٤.
الإخراج الداخلي:	Dr.Right
تصميم الغلاف:	إسلام مجاهد.
رقم الإيداع:	
الترقيم الدولي:	





كوابيس قبل النوم ١

البدايـــة

الجزء الأول



رواية

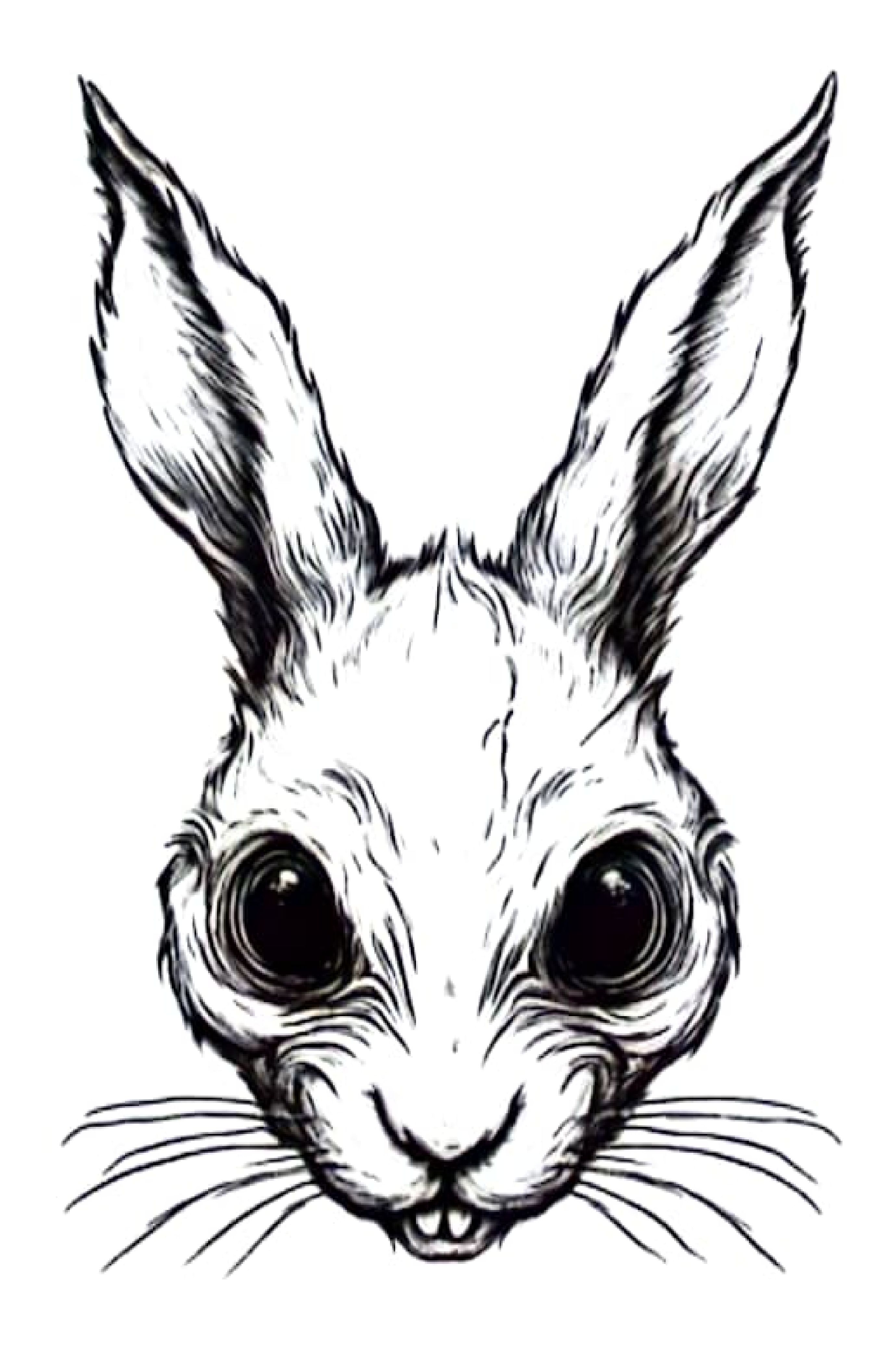
عبد الرحمن حجاج



تنويه

رسائل فينسنت إلى ثيو هي من خيالي الخالص ولا تمت للواقع بِصلة...

ربما





إهداء



لحواديت جدتي بتاعت زمان، لولا حواديتك ما كنتش هبقى بعرف أكتب حواديت دلوقتي.

للنور، اللي بييجي بعد الضلمة، والضلمة اللي بتخلينا نعرف قيمة النور...

للحب اللي بيتحول لهوس، والهوس اللي بيتحول لوجع، والوجع اللي بنتعلم منه في النهايات..

للي حب وما طالش، واللي فرد جناحات عشقه عشان يطير ف وقع على جدور رقبته

إلى كوابيسي... أهديكم هذه الرواية... لعلي أتحرر منكم...



إهداء تاني



إلى أمي، اللي كانت بتاخدني زمان المكتبة وتخليني أقرأ أكتر واتعلم أكتر

إلى أبويا، اللي كان دايمًا بيجب لي أفلام ديزني أول ما تنزل، ومعاها فهمت معنى الخيال

لكل واحد وصل للصفحة دي، شكرًا على إيمانك بيا... يا رب أكون عند حسن ظنك دايمًا



مَتى يَشتَفي مِنكَ الفُؤادُ المُعَذَّبُ

وَسَهمُ المَنايا مِن وِصالِكِ أَقرَبُ

فَبُعدٌ وَوَجدٌ وَاِشتِياقٌ وَرَجفَةٌ

فَلا أَنتِ تُدنيني وَلا أَنا أَقرَبُ

كَعُصفورَةٍ في كَفِّ طِفلٍ يَزُمُّها

تَذوقُ حِياضَ المَوتِ وَالطِفلُ يَلعَبُ

فَلا الطِفلُ ذو عَقلٍ يَرِقُّ لِما بِها

وَلا الطَيرُ ذو ريشٍ يَطيرُ فَيَذهَبُ

فلو كان لي قلبان عشتُ بواحدٍ

وخلّدتُ قلباً في هواكِ يعذّبُ

ولكنما أحيا بقلبٍ واحدٍ

فلا العيشُ يصفو لي ولا الموتُ يقربُ

وَلي أَلفُ وَجهٍ قَد عَرَفتُ طَريقَهُ

وَلَكِن بِلا قَلبٍ إِلى أَينَ أَذهَبُ؟

قيس ابن الملوح



مقدمة

ثلاثية كوابيس قبل النوم

بدأت فكرة رواية كوابيس قبل النوم في سنة ٢٠١٨، لكنها لم تكن فكرة مكتملة بشكلٍ كامل في رأسي، كنت أقول لنفسي وقت التحضير "لسه فيه حاجة ناقصة"، أردت أن أكتب روايةً تجمع بين الرعب النفسي، اللون الرومانسي مع الإثارة والغموض، أردت أن أكتب رواية أحب أن أقرأها في ليلة شتوية مصحوبة ببعض الموسيقى المخيفة وأنا أحمل بين يدي كوبًا من الشوكولاتة الساخنة، أو في الصيف على شاطئ البحر بينما صوت الموج يداعب أذني، رواية تنقلك لمكان خاص بها أينما كنت.

في ٢٠١٩ سافرت لمدينة أمستردام، والهدف الأساسي وقتها هو زيارة متحف فان جوخ، هذا الرسام الساحر الذي طالما أحببته وأثار فضولي لسببٍ لم أعلمه حتى انتهيت من ثلاثية كوابيس قبل النوم، وبينما أتجول في المتحف العملاق وجدت ضالتي المنشودة، ممر ضيق غير مزدحم مثل باقي المتحف، وكأن أرنب أليس في بلاد العجائب هو من نادى عليَّ حتى يأخذني لهذا الممر تحديدًا، الممر كان يحمل براويزًا بداخلها جوابات بخط اليد من فينسنت، العشرات من الرسائل بخط يد فينسنت من أصل المئات التي كتبها لأخيه خلال سنوات حياته وخصوصًا الفترات التي عاشها في المصحات النفسية.

بجانب كل رسالة كان هناك سماعة هاتف، منها تستطيع أن تستمتع لأداء تمثيلي صوتي لفينسنت وهو يلقي الرسائل بمختلف المشاعر، عاش فينسنت حياة قصيرة، ولكنها امتلأت بالكثير من التفاصيل الغنية، عاش الحب، الألم، الخذلان، الفشل، الإحباط، الوحدة، الخوف، ولم يقدّر العالم فنَّه إلا بعد وفاته.

بعد عودتي شرعت في القراءة عنه، عن حياته وعن فلسفة لوحاته، وحينها فقط علمت "فكرة الرواية خلاص اكتملت" وأنا أسأل نفسي: "ماذا لو؟"،



لأخلق حينها شخصيتي المفضلة على الإطلاق في عالم رواياتي، (يونس أحمد ليل)، والذي أنتم بصدد قراءة قصته العجيبة.

أتركم الآن مع الثلاثية التي بدأت رحلتها كفكرة في ٢٠١٨ وخط الحرف الأخير من جزئها الأخير في ٢٠٢٣، أتمنى لكم رحلة مختلفة مع حكاية لم يُعرف حتى الآن إذا كانت تنتمي للواقع أم للخيال.

عبد الرحمن حجاج



يا سهم الغرام الغريب اللي صابني

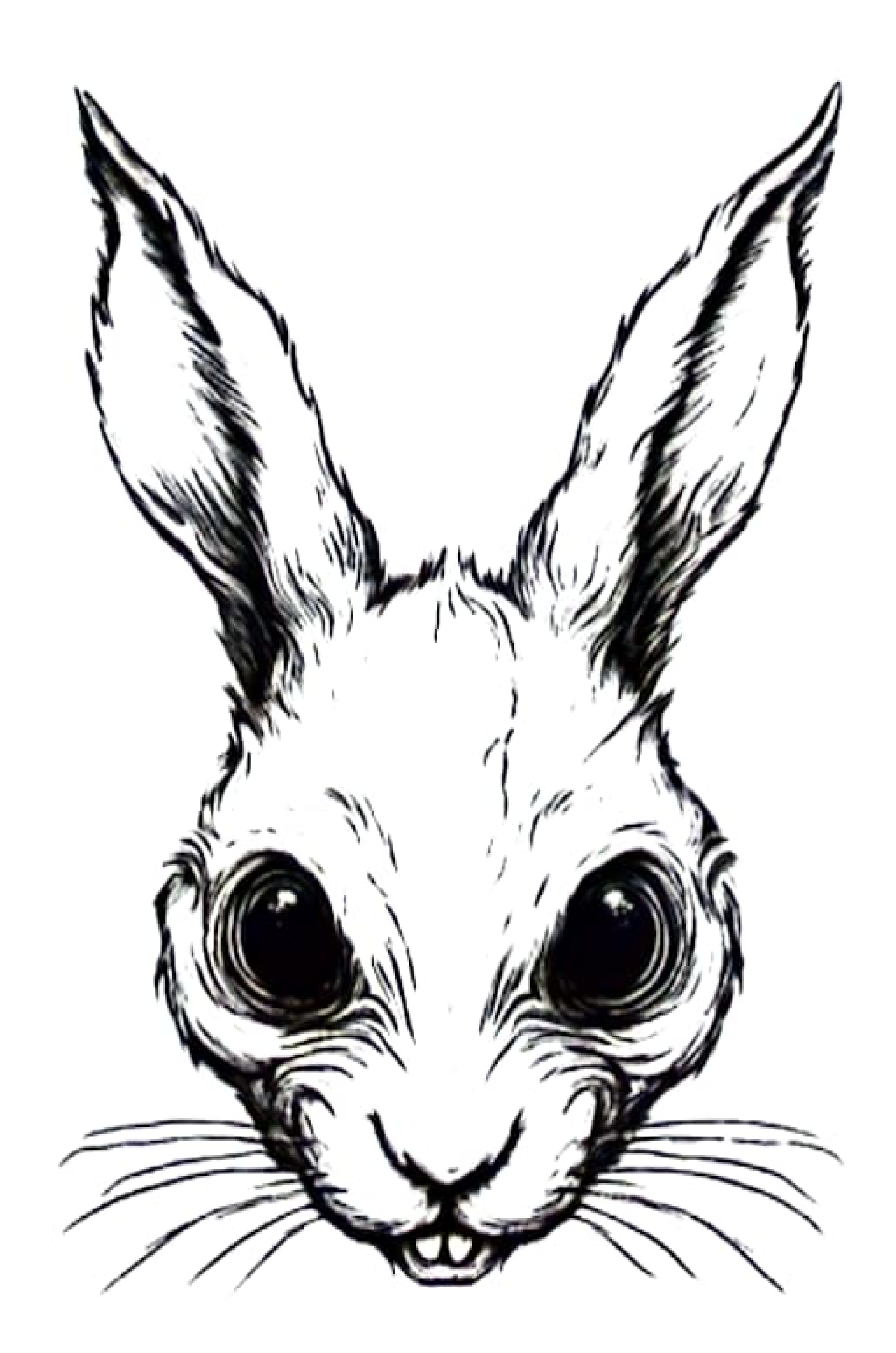
هزمني وغصبني

وفاتني فـ بحور الليالي التقيلة

هشام الجخ



سر الثلاثة.. سر الجميع"





- في يوم من الأيام هيبقى عندنا مزرعة زي اللي على الطريق دي

- هتسيب شغلك وحياتك وتقعد تزرع وتربي فراخ وبقر وكلاب؟

- دي حاجة نفسنا فيها أنا وانتي من زمان... وبعدين كفاية إننا هنبقى مع بعض

***

"ينام الليل وسهرانة في هواه ما بنامش"

- سرحان في إيه؟

- افتكرت الفيلم اللي مرة فرجتيني عليه أول ما عرفنا بعض

- فيلم إيه؟

- مش فاكر اسمه، اللي هو بتاع جيم كاري وكايت وينسلت دا...

- أيوه... **eternal sunshine of a spotless mind**... ماله بقي؟

- أنا بخاف من الفيلم دا جدًا على فكرة... بخاف ييجي يوم وتنسيني... بخاف في يوم من الأيام أعدي من جنبك ونبقى مش فاكرين بعض... أنا بترعب من فكرة الفقد...

- أنا عمري ما هبعد... دا وعد...



عزيزي ثيو،

"أكتب إليك اليوم من داخل غرفتي بالمصحة النفسية التي أودعوني بها منذ عدة أشهر أو أسابيع، مع مرور الوقت أفقد القدرة على الحساب وعد الأيام، كل الأحداث هذه الفترة هي أحداث يومية رتيبة تدفعني كل يوم إلى الانتحار، بالأمس حاولت أن أسرق القلم من يد ممرضتي لأطعن نفسي به في رقبتي ولكن استطاع هؤلاء الأغبياء أن يمسكوا بي ويمنعوني، يعتقدون أن الموت شرٌ لي، في الواقع أنا أخاف من الموت، ولكن لا ضرر إن أقدمت عليه، الفضول دائمًا يدفعني لمعرفة ما بعد الحياة، أكتب إليك بقلمٍ رصاص متناهي الصغر أعطوني إياه بعد تأكدهم من استحالة استطاعتي استخدامه في قتل نفسي، كل ما يمكنني الحصول عليه بشكل يومي هو الطباشير، لا أتوقف عن الرسم أبدًا، أرسم كل نهار وليل حتى تمتلئ الحوائط برسوماتي، وفي صباح اليوم التالي أطلب من ممرضتي أن تمسح لي الحوائط ببعض الماء لكي أتمكن من الرسم عليها مرارًا وتكرارًا، يوفرون لي الطباشير ولا يدركون أنهم يعطوني سمًا قاتلًا قد يفتك بي أفضل من أي قلم، لا يدركون أن بداخل هذا الطبشور الأبيض البسيط مكونات مرعبة مثل الرصاص والزرنيخ والزئبق، لن أقتل نفسي الآن، أشعر بالرغبة في الرسم أكثر من الموت، أراك قريبًا..."

فنسنت

وقف شريف مهتزًا متوترًا وهو يصوب فوهة مسدسه، يترنح مثل المخمور وشفتاه ترتعشان، العشرات من الأفكار والقرارات تدور بداخله ولا يستطيع إن يتخذ قرارًا واحدًا، الأصوات داخل رأسه تكاد تفتك به، ينظر إليّ وينظر حوله إلى هؤلاء الأشخاص ذوي أقنعة الحيوانات، صامتين وساكنين... ينظرون صوبه وصوبي بعدها...

- كفاية أوي كدا... العبث دا لازم يخلص ودلوقتي

- ما توديش نفسك في داهية، نزل المسدس دا يا شريف...



- أروح في داهية بدل ما أنا عايش كدا... هيحصل إيه يعني؟ هيعدموني؟ برضه هيبقى أريح من اللي أنا عايشه دا...

كان ترنحه يزداد ولسانه يصاب بثقلٍ أكثر في النطق، يحارب لكي تخرج كلماته صحيحةً ومتزنة، يبدو ثملًا بائسًا وبداخله الكثير ليخرجه والقليل جدًا الذي يمكنه قوله...

- طب نزل المسدس وخلينا نقعد نتكلم... أوعدك هريحك...

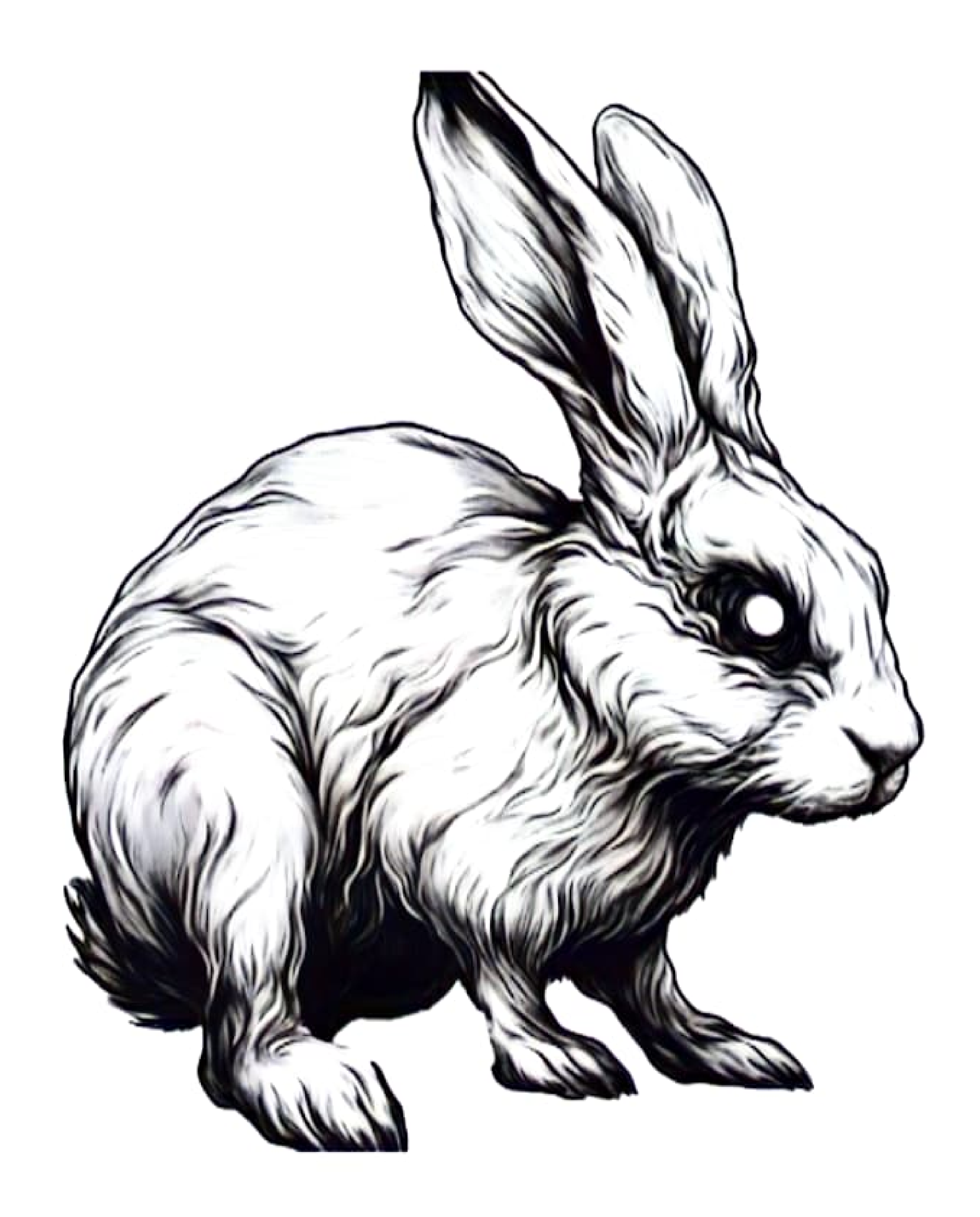
- فات وقت الكلام... أنا هحرق قلبك وأحرقك زي ما حرقتني كل يوم...

كان الصوت الذي تلي الجملة الأخيرة صوتًا مدويًا اهتزت لأجله أرجاء البناية بالكامل، زجاج يتناثر في كل مكان وأصوات غريبة يصعب تمييزها..



الفصل الأول

أن أكون يونس





أنا هو أنا، لا أتغير ولا أنوي التغير، حياتي الشيقة بالنسبة لهم قد تكون في الكثير من الأحيان الأكثر مللًا بالنسبة لي، لدي كل الأسباب لكي أصبح واحدًا من روادي وحالاتي، لكني أتيقن وقتها أني يجب أن أبقى كما أنا، لهم... ليس لي... نعم... فقط لهم، أخلق أبوابًا جديدة كل يوم لعلّي أجد مهربًا لي، ولكن تلك الأبواب التي أعثر عليها تشبه كثيرًا متاهة علي بابا، كل باب أفتحه معتقدًا أنه باب الهروب يسحبني إلى عشرات الأبواب الأخرى؛ فأشعر بالضياع والوجع، أشعر بأنفاسٍ كريهة لزجة تقترب مني وتحرقني، أشعر بوحشٍ عظيمِ الهيئة يقترب مني، بملامحه السوداء وعباءته التي يسيل منها الدم، يقترب مني ويدعوني للرحيل، يمسك بيدي كصديقٍ قديمٍ ويزج بي إلى بابٍ جديد، و الأبواب كثيرة وجميعها يأخذني إلى نفس المكان أو نفس النتيجة، اللا شيء...

أنا هو أنا، ملعون بعدم الاكتراث، ملعون بالاعتياد، ملعون بعدم قدرتي على الوصول إلى الذروة في أي شيء، ملعون بكوني شخصًا **expired**، لا تفوح مني رائحة العفن ولكن الأفضل للآخرين عدم استخدامي...

أنا العدو الأكبر لدى نفسي، لا أؤذيها حقًا، ولكني أيضًا لا أنفعها، أنا من يدفن نفسه في العمل لساعات وساعات لأتفادى وقتًا قد أقضيه مع نفسي، فتسألني هي: إيه اللي انت غلطت فيه يا يونس، أنا من يعيش في ماضي لن يعود وحاضر لا أكترث لوجوده وينتظر مستقبلًا لا أمل فيه...

- لما بنحب، بنفكر في لحظة الفراق؟

- لما بنحب مش بنفكر أصلًا...

أنا مجموعة من التفاصيل الغريبة، ممزوجة بخمسة وثلاثين عامًا من الخبرة الحياتية التي قد تكون غير مفيدة أو غير مثمرة على الإطلاق، القليل من الشعر الأبيض، الكثير من الحزن وعدد يصعب حصره من القصص والحواديت، أصبحت أتعامل مع المرضى ومشاكلهم كما يتعامل الأطفال مع حواديت ما قبل النوم، أمر لا غنى عنه ولا بديل له، أسمعهم وأواسيهم وأدعوهم للنوم العميق، أدعوهم للأحلام السعيدة والبحث عن الفرص



الضائعة، أو حتى البحث عن ماهيتهم الحقيقية...

أنا المتسرع دائمًا فيما قد يضرني، أعيد حساب الأشياء في الأيام العادية مرارًا وتكرارًا، ولكن حين يتعلق أمرٌ ما بي، أتسرع، فأغرق، فأندم، والندم الأسوأ هو الذي يرتبط بالقلوب، هذا النوع من الندم الذي يجعلنا نتجنب الأشخاص والأماكن وحتى الروائح التي تعيدنا للنقطة صفر مرة أخرى، الندم الذي يحدد أقامتنا فنصبح مساجين داخل أنفسنا، الندم الذي يجعلنا نعيش كما قالت الفنانة أصالة في أغنيتها "نص ضحكة، نص فرحة، نص راحة".

يونس أحمد ليل، أو دكتور يونس ليل أو يونس باشا، أو لا شيء على الاطلاق...

لك أن تطلق عليّ الاسم الأقرب إليك، لا أهتم بالألقاب أو ما عدت أهتم كما كنت أفعل في حياتي السابقة، كل ما يهمني هو أن يحكوا ويُخرجوا ما في قلوبهم ونفوسهم، يفرزوا دموعهم وعرقهم على هذا الكرسي المريح لكي ينهضوا منه أشخاصًا أخرين، قادرين حقًا على الحياة وعلى حل مشاكلهم وأوجاعهم، أستقبل المرضى والذي يتعجب معظمهم لعدم وجود شيزلونج ليجلسوا عليه مثلما يرون في الأفلام، أحداث الأفلام لا تحقق، لا ينتصر الخير في الواقع ولا يفوز البطل بحبيبته بل تُفضل عليه شخصًا آخر، ربما تختار شابًا مفتول العضلات مثلًا أو ثريًا عربيًا يحقق لها أحلامها التافهة أو قد توفر عليك عناء الجراح فتموت في حادثٍ مروري فتستبدل الجرح بوجعٍ يعيش ويموت معك، في الأفلام نر ى غرفة الطبيب النفسي مظلمةً ونرى المرضى أقرب إلى المجاذيب، رغم أن في الواقع هم أشخاص عاديون، فقط حظهم العثر دعاهم لكي يجالسوا شخصًا مثلي، شخصًا تم تنصيبه في مركز أعلى منهم، يسمع ويحكم ويقرر ويحسم...

أحب عيادتي حقًا، بكل تفاصيلها وديكوراتها البسيطة والتي لن أكون كاذبًا إن قلت أنها الأنفخم والأجمل إن قارنتها بأي عيادة أخرى لطبيبٍ نفسي، مكتبٌ خشبي نخم اشتريته من مزادٍ على إحدى صفحات المزادات



على الفيسبوك، بدأ المزاد بـ ٢٠٠٠ جنيه، بدأت بالمزايدة وهذا الشخص السخيف الذي حمل حسابه اسم "وحدي أنا" أزايد فيزايد حتى كتبت إني سأدفع عشرة آلاف ثمنًا لطاولة المكتب وحسمت المزاد، لم أشترِ شيزلونجًا، أراه بلا فائدة؛ فأنا من يجعل المريض يحكي وليس هذا الشيزلونج، إضاءات بسيطة ومريحة للعين لا تميل للظلام، مكتبة ضخمة تضم المئات من الكتب التي لم أقرأ نصفها حتى الآن، أخبر نفسي إنني يجب أن أهتم بالقراءة وينتهي بي المطاف فلا أفعل أي شيء من وعودي لنفسي...

يأتي أباظة كل أيام الأسبوع ليتأكد إن كل شيء مرتب ونظيف، يتأكد أن برطمان النيسكافيه الجولد ممتلئ فهو يعلم جيدًا إني قد أتجرع في اليوم الواحد ما يقرب من العشر أكواب خصوصًا إن كان ضغط العمل كثيرًا في هذا اليوم، أحب هذا الرجل حقًا رغم عدم اقتران اسمي باسم أي شخص آخر ومعنى كلمة "حب"، ولكن أباظة بسمرته الجميلة وضحكته الحقيقية تدفعك لحبه...

أمسك بتلك الكراسة الصغيرة، أقلبها في يدي عندما يسمح لي الوقت أو في أوقات فراغي وأكتب بعض الجمل التي تدور في ذهني، أكتب عما علمتني تلك الحياة أو ربما بعض الكلمات من أغنية محببة إلى قلبي، أكتب لكي أرتاح... أكتب لكي أظل على قيد الحياة، أنظر إلى مكتبي مرة أخرى فأرى ذلك الخاتم الذي يحمل حجر الفيروز؛ فأمعن النظر إليه وأتذكر قصته، أتذكر هذه العصفورة التي غيرت حياتي كذلك...

في السيارة أستمع إلى أغنية تشدني كلماتها، لا أستمع إلى الأغاني مثل باقي البشر، أعيشها وأرى نفسي بطلها في كثير من الأحيان...

في أيام إجازتي الأسبوعية، أهرب إلى الإسكندرية وأغلق هاتفي، أترك فقط الـ **internet connection** حتى إذا أراد مريضٌ إن يحدثني أو يسألني عن شيء أجيب على رسائلهم على الواتساب، ولكن الجميع يعرف هذه القاعدة عني جيدًا "الدكتور لا يستقبل مكالمات أثناء السفر إلا في الحالات القصوى"، أفتح الهاتف مرة أخرى في طريقي إلى العودة لكي



أحادث عم أباظة وأذكره بالنسكافيه وأؤكد على المعلومة "لو ما جبتش النسكافيه ما تجيش يا عم أباظة يا جميل"...

أطير بسيارتي في أيام الإجازة إلى الإسكندرية حيث أنسى كل مشاغل ومتاعب الأسبوع هناك، ألقي همومي في البحر، الذي لم يمانع يومًا إن يشاركني أحزاني ولم يشتك في مرة بسبب كثرة حكيي معه، الأشياء عادة تختلف في الإسكندرية، الطعام والهواء، حتى الشيشة... في الإسكندرية كل الأشياء تختلف...

أقتل الوقت بالقراءة، أفضل الشعر، قيس بن الملوح وهشام الجخ، أقرأ وفي أذني يندس صوتها إلى قلبي كما يندس السم في العروق، تغني هي وتعيدني إلى ذكرياتي وقصتي وبدايتي ونهايتي، أنغام...

"لو ضروري تفوتني... خد مني الحنين"

أنا هو أنا، قد أحارب جيوشًا بدهائي، ولكن حينما يعود الأمر إلى كوابيسي، أصبح خائر القوة، مهزومًا حتى قبل بداية الحرب، يونس السقيم بلا مداواة...

***

اليوم هو أحد أيام الإجازة الخاصة بي؛ ولكنني مرغمٌ على الذهاب إلى العيادة من أجل عيون ابنة أختي الوحيدة، مريم... أعلم جيدًا إنني لو أصبح لي ابنة لن أحبها كما أحب مريم، حدثتني منذ عدة أيام وقالت أنها تريدني في أمر هام له علاقة بمشروع تخرجها من كلية الإعلام وإنها تريد مقابلتي في العيادة مع إحدى صديقاتها وشريكتها في مشروع التخرج، وها أنا أجلس منتظرًا الأستاذة مريم وعم أباظة الذي تأخر كعادته عن إحضار النسكافيه، فعل الانتظار شيء مخيف، يشبه الكابوس... لا تعلم تحديدًا متى ينتهي...

بمناسبة الكوابيس، تطاردني في صحوي كل يوم تقريبًا، لا أحتاج للنوم كي أراها وتأتيني، لا تطرق الباب حتى قبل الدلوف إلى مشاعري، تهاجمني



ككلب مسعور بلا هوادة ولا رحمة، لا شيء ينفع مع كوابيسي، في البداية أهدتني أختي "دريم كاتشر"، كانت قد أحضرتها معها من واحة سيوة.

يقول الهنود الحمر أنهم يعلقونها خلال النوم فوق رؤوسهم، لأن الأحلام السيئة تعلق في الشبكة، أما الأحلام الجميلة فتنجو وتمر من خلالها، ثم تتلاشى الكوابيس مع طلوع الفجر، وهم يرون أن الأحلام عبارة عن أفكار تستمر أثناء الليل، والقصد إن الأفكار الشريرة تصبح أكثر لطفًا بعد إن تخرج من الريش، لأنها تتفرع وتصبح أقل تركيزا.

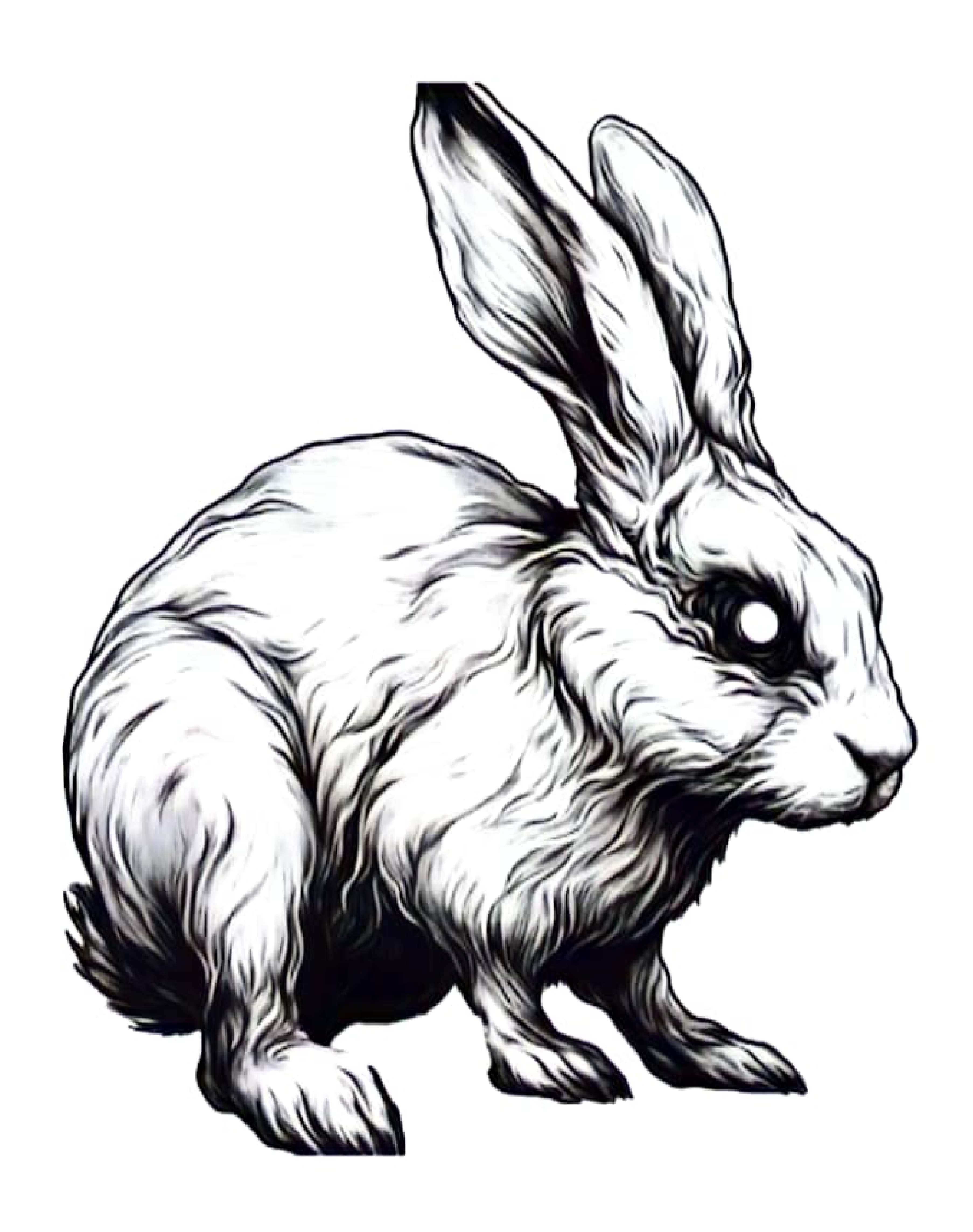
ظلت تؤكد لي على سحر صائدة الأحلام وأن الأسطورة تؤكد قدرتها على منع الأحلام المزعجة والكوابيس، أحاول أن أشرح لها أنه حتى وإن كانت الـ "دريم كاتشر" تقوم بشيء حقًا فهي تساعد من ينام ويحلم، أما أنا فلا أنام ولا أحلم، هي كوابيس الصحو وكفى...

الحالات، المرضى أو الأشخاص في العموم، يحتاجون إلى من يسمعهم، ويلمس قلوبهم ويطمئنهم، الكثير من المرضي لا يبحثون عن حلول بقدر احتياجهم للكلام، يحتاجون إلى من يستمع إليهم باهتمام، رحلتهم الدائمة للبحث عن بعض الحب حتى وإن كان شغفًا زائفًا ومصطنعًا...



الفصل الثاني

زيارة سريعة





تيا ما زالت نصف نائمة ومريم تحاول الاتصال بها للمرة العاشرة تقريبًا، تمطى في دلال وهي تحسس أسفل وسادتها باحثة بأناملها عن هاتفها المحمول، أغمضت عينيها عندما أنار ضوء شاشة الهاتف في وجهها، فعدلت من مستوى إنارته ليناسب غرفتها المظلمة، لا تطيق تيا النوم إلا في الظلام الكالح، كانت تحايل على القدر لكي تظل نائمة ويفوتها موعد اليوم، هي تكره الدراسة والكلية وتكره أكثر أن تخرج يوم الإجازة، خصوصًا إن كان الخروج من أجل بحثٍ تقوم به لمشروع تخرجها من كلية الأعلام، عشرون مكالمة لم يتم الرد عليها كانت حصيلة المرّات التي حاولت مريم فيها أن تتصل بتيا...

- ألو...

- انتي مستفزة؟ أنا بقالي ساعتين تحت بيتك يا تيا!!

- سوري يا حبيبتي نمت متأخر أوي... ربعاية وابقى عندك تحت

كعادتها تيا، أو كعادة كل ما خلق الله من نساء، يقولون أمامهم ربع ساعة لتتحول إلى ساعة أو ربما خمسة!! النساء يرتدون الساعات ولا يجيدوا قراءة الوقت..

اختارت كليتهم هذا العام "الأمراض النفسية" ليكون موضوعًا يختار منه الطلبة مشروعهم، ولأنهم أصدقاء منذ الطفولة؛ قررت تيا ومريم إن يشتركا في مشروعهما سويًا، ولحظهم الرائع أن يونس خال مريم طبيب نفسي شهير، قررا لقاءه لكي يساعدهما...

- شفتي السرعة بقى؟ أسرع شاور في العالم أهو

- نفسي أعرف إيه اللي مصبرني عليكي بس؟ دايمًا معطلاني

- يا رب خالك يساعدنا بجد بس.

- عيب عليكي... هتشوفي وتحكمي بنفسك





الوقت يمر ببطء، تأخرت مريم، بعض النسكافيه قد يقتل بعض الوقت، بعض الموسيقى قد تساعد أيضًا...

انظر إلى نفسي في المرآة التي تواجه باب العيادة، فأراني كما لم أعهد نفسي، أرتدي قميصًا ورديًا وجينز أبيض، ذقني طويلة بعض الشيء لكنها مهذبة، السواد أسفل عيني يجعلني أشبه حيوان الباندا ولكن النظارة الطبية تخفيه بعض الشيء...

- ازيك يا عم أباظة

- أهلًا يا مريم يا بنتي، أخبار الكلية إيه؟

- الحمد لله... خالو يونس وصل؟

- مستنيكي من بدري... اتفضلوا

مريم قلقة بعض الشيء، أشعر من ملامحها بالخوف على هذا المشروع، ما زالت لا تعلم ماذا ستصور أو تكتب، أما صديقتها فيبدو عليها عدم الاكتراث والبرود، لكني أرى في عينيها الكثير والكثير من الفضول، حضنتني مريم وسلمت صديقتها علي بأدب شديد، أرى الهيبة والاحترام في أعين المريدين لما يرون من فخامة المكان والبساطة في التعامل من قبلي...

- دي تيا صاحبتي يا خالو، معلش هي اللي أخرتني

- أنا آسفة والله يا دكتور

- قولي لي يا يونس، ومريومة تقدري تقولي لي يا يونس انتي كمان، أمك مش معانا عشان تقعد تدينا محاضرة في الأخلاق وأهمية الألقاب، ها بقى احكولي إيه موضوع مشروع التخرج...؟

- الطب النفسي والعلاج النفسي... الحالات الغريبة وايه اللي حصل لهم؟ وهل فعلًا العلاج النفسي بيجيب نتيجة ولا لأ...؟

- هممم



- عايزين حضرتك تحكي لنا عن الكواليس.. وحكاية العلاج مثلًا...

- بس اشمعنى الموضوع دا اللي اخترتوه.. ما فيه مواضيع كتير أسهل وابسط من الدوامات دي

- احنا لو علينا والله كنا عملنا مشروع التخرج عن دهب وأهي منها سفرية وبحر بس الكلية بقى اللي اختارت المواضيع.

- تمام، أهم حاجة عندي زي ما دخلتوا العيادة بتضحكوا تخرجوا منها بعد كل قعدة لسه بتضحكوا... مهما كانت الحواديت حزينة اعتبروها حدوتة من الخيال

- ما تخفش علينا... احنا قلبنا ميت خلي بالك... تحب نبدأ ازاي؟

تنهدت، في الحقيقة أنا لا أعلم تمامًا ما يجب علي أن أحكيه وما يجب عليهم سماعه، أريد أن أساعدهم بالحد المسموح لهم في عمرهم هذا، فكرت لدقائق وجاوبتهم قائلًا:

- خليني أحكي لكم عن شوية حالات، حواديتهم ورحلتي معاهم، امتى بنجح مع مريض وامتى بفشل معاه، يعني تعالوا نعتبر كل جلسة لينا قعدة حواديت، يهمني بس تعرفوا إن المريض النفسي مش مجنون زي ما ناس كتير بتفتكر، المريض النفسي في الأغلب بيعاني من مشكلة معينة من المشاكل دي، يعني مثلًا مش بيحسوا بالرضا عن حياتهم، مشاعرهم بتتحكم فيهم بشكل مؤذي، بيبقوا متأثرين أوي من الماهيات اللي حواليهم وبيبقوا شبه الكوباية الإزاز، اللي لو وقعت وقعة بسيطة هتتكسر مليون حتة وكمان تعور اللي حواليها، المرضى النفسيين كمان بيبقوا في أحيان كتير مش متسامحين مع نفسهم، مش بيتقبلوا الغلط وبينسوا ازاي يسامحوا الناس. يحسوا إنهم غير منتميين للمجتمع ولا حتى للناس اللي حواليهم، بيتحولوا إلى أشباه كائنات فضائية ولا هما فاهمين الناس ولا الناس فهماهم. المريض النفسي بيبقى فعليًا في عالم خاص محتاج اللي يطلعوا منه...

***



أشعر بالخوف في كثير من الاحيان، أغمض عيني أو أتركها على حالها، أحدق في الفراغ أو حتى فراغ جفوني المعتمة، و أنا أجلس وحدي كل ليلة في غرفتي، أنتظر شيئا أعلم أنه لن يأتي مهما طال الوقت، أنظر حولي وادرك كل تلك الاشياء التي تركتيها خلفك قبل الرحيل، أو حتى الاشياء التي لم تأخذيها ولكنها مازالت تحمل أنفاسك ورائحتك، ريموت التلفاز، صندوق الشيكولاتة، ملابسي التي كنتي تعشقين أرتدائها، في الواقع أنتي أخذتي الكثير، حتى سعادتي لم تتهاوني فيها واخذتيها معكي...

انتي بنات أفكاري الملعونين...

- انا حاسس إني محبوس في حكايتك، سيبيني...

- عمري...

فقط لو كنت أعلم أنك سترحلين بلا عودة، لكنت وشمت على جسدي كلمة "بحبك" مئات المرات، أغني لك كل أغاني "أنغام" التي تعشقينها، أحضنك حتى تتخلع ضلوعك وضلوعي وأنا أغني قائلًا "دا انت النسايم اللي بيها العمر حالي... إمتى يا سيدي تحس بيا ترؤف بحالي"، لو كنت أعلم أنك سترحلين كنت قبلتك كل ساعة وكل لحظة، كنت تجنبت الكثير من الحزن والمشاكل، كنت لأغير الكثير والكثير من الأشياء...

كنت رأيت شخصًا آخر غير يونس في الكون...



عزيزي ثيو،

المرأة مخلوق معذب، هي الخاضعة التي تمتثل إلى المسلمات، ضعيفة وخانعة أمام الرجل، لا تريد سوى إن تحيا حياة بسيطة لا مشاكل أو متاعب بها، أنا لا أريد مثل هذا النوع من السيدات في حياتي يا أخي، أريدها غير تقليدية وغير مكترثة للمسلمات، أريدها متمردة يا ثيو، أريدها أن تشبهني ولا تشبهني، تتبعني ولا تتبعني... في الواقع... أنا لا أعرف ما أريد...

فنسنت



- خليني أحكي لكم الأول عن شريف...

يعشق شريف مهنته كضابط مباحث، مرهق هو في أغلب الأوقات، لا ينام تقريبًا ويعيش على القهوة والسجائر وما قد تطوله اليد من أكياس شيبسي أو مشروبات غازية...

عرف بين زملاء المهنة باسم شريف باشا المخاوي، لقدرته العجيبة على حل كل القضايا الصعبة والتي يعجز الجميع عن حلها، بارع في قضايا القتل والخطف، لا يستخدم العنف أبدًا، لكن سلاحه أقوى من العنف... العقل...

ذات صباح كان شريف جالسًا في مكتبه يراجع بعض القضايا، الأوراق والملفات أشبه بجبل صغير على وشك الانهيار، إذا مر فان جوخ من أمام مكتبه لقام برسم لوحة فنية لمشهد فناجيل القهوة على مكتب شريف...

دخل العسكري وأخبره إن هناك من يريد مقابلته، صياد يدعى النونو، فأشار إليه بيده لكي يدخل النونو، تقدم الرجل وهو رجل في العقد الخامس من عمره يرتدي جلبابًا رائحته مزيج من السجائر الكليوبترا وزفارة السمك، دعاه شريف إلى الجلوس وانتظر لكي يبدأ الرجل بالكلام

- أنا جاي أبلغ عن واحدة مختفية يا باشا

- تقرب لك إيه المختفية دي يا عم نونو؟

- لا هي ما تقربليش، دي بتيجي تأجر مراكب من عندي كل يوم.

- مراكب؟ لا فهمني... و بعدين إنت عرفت منين إنها اختفت وهي مش قريبتك؟ شوفتها يعني وهي بتتخطف؟

- أنا اسمي النونو يا باشا، عبدالكريم النونو وعندي محل تأجير مراكب صيد ومراكب رحلات في الفيوم، اللي جاي أبلغ عن اختفاءها دي يا باشا زبونة أميرة وبنت ناس اسمها الأستاذة حنين، بتجيلي كل يوم يا باشا من ييجي سنة ونص، صيف شتا يا باشا تلقيها عندي في البحيرة، تاخد



المركب وتدخل جوه ترسم وتسمع أغاني في الراديو بتاعها أو التليفون المحمول وترجع تحاسبني وتمشي، مفيش يوم يا باشا ماكنتش بتيجي، دا أنا حتى سألتها من فترة إنها ازاي بتعرف تيجي كل يوم ومفيش ولا يوم فوتته وكانت دايمًا تضحك وتقول إن المكان دا غالي أوي عليها، بس والله بنت حلال أوي يا باشا، دا حتى الصيادين كلهم بيحبوها وبتيجي تتواضع وتقعد تاكل معانا وتهزر... و هوب يا باشا بين يوم وليلة اختفت...

- مش شرط يا عم نونو تكون اختفت، ما يمكن عيانة أو مسافرة أو يمكن ماتت حتى، معاك بيانتها طيب عشان نوصل لأهلها ونتطمن؟

- لا والله يا باشا، دا حتى نمرة تليفونها اديتها لي زمان في ورقة وأكيد ضاعت مع اللي بيضيع، بس دي صورتها يا باشا، اتصورتها مع الأستاذة حنين من بيجي سنة كدا وهي طبعتها واديتها لي هدية، والنبي قبل الهدية

- طيب يا عم النونو سيب رقم تليفونك وسيب الصورة دي ولو في جديد هقولك ولو لقيت الورقة اللي فيها نمرتها جرب كلمها يمكن يطلع كل اللي في دماغك دا هواجس وتريح قلبك...

- ألف شكر يا باشا... ألف شكر

***

كان يجلس أمامي متوترًا ومهمومًا، يصبح شخصًا آخر عندما يخلع سلاحه من حزامه ويرتدي زي الأنسان العادي بعدما تنتهي الساعات الميري في يومه، جلس أمامي وهو يتجرع أكواب الماء الواحدة تلو الأخرى كمن لم يشرب منذ سنوات، أنظر إليه وأدعوه لكي يتحدث ويخبرني أكثر عما بداخله ولكنه كان قليل الكلام...

- شريف... أجيب لك مياه تاني؟

- شكرًا يا دكتور... تصدق شريف دي مش متعود عليها من غير باشا وبيه...



- خلاص احنا قلنا بنشيل الألقاب والتكاليف لما بنقعد في الأوضة دي... عايزك تتحرر من كل اللي شاغلك ومسيطر على تفكيرك وإحساسك... قول اللي جواك زي ما انت شايفه مش زي ما انت عايز الناس تشوفه... فاهمني يا شريف؟

- أنا بس بالنسبة لي الموضوع جديد يا يونس، أنا بشوف حنين وبتكلمني رغم إني عمري في يوم ما شوفتها... بتظهر وتحكي وتتكلم، هي تقريبًا عايشة معايا في البيت وفي الشغل، ساعات بتكلمني في التليفون وتقولي يا شريف وصلت لأية في القضية بتاعتي...

- بتخاف منها يا شريف؟

- مش خوف... وجودها بس مش مريحني ومأثر على حياتي، أنا بقيت أخاف أستحمى ألاقيها داخلة ورايا الدش، بقيت بخاف أبقى في اجتماع مهم مع حد من زمايلي وتظهر لي وما اعرفش أداري وجودها... أنا تعبت يا دكتور يونس... خايف أكون مجنون...

- احكي لي طيب براحة كدا إيه اللي حصل بعد أما جالك النونو دا أول مرة...؟

***

عزيزي ثيو،

" مثل المواسم التي تغير الطيور فيها ريشها، تكون أوقات الشقاء والتشتت بالنسبة للبشر. ويمكن أن يخرج الإنسان منها متجددًا، ولكن لا يجب إن يحدث هذا أمام أنظار الجميع. لذلك فالشيء الوحيد الذي يجب على المرء فعله، هو إن يخفي نفسه... ولكن... أيخفي نفسه من نفسه؟ أم من البشر؟"

فنسنت



في هارديز الزمالك، جلست مريم تلتهم البرجر الخاص بها في نهم وهي غارقة في أكياس الكاتشب بينما تيا سارحة تقلب الطعام في يدها بلا تركيز..

- مالك؟ من ساعة ما نزلنا من عيادة خالو وانتي سرحانة

- كنت فاكرة الموضوع أسهل من كدا بصراحة... شكله هيطلع حوار كبير

- مش حاسه إن هو دا اللي واخد عقلك... من إمتى يعني بيفرق معاكي شغل الكلية؟

- أهو اللي حصل... بس بقولك إيه؟ خالك طلع مز، ماتظبطيني معاه يا بت...

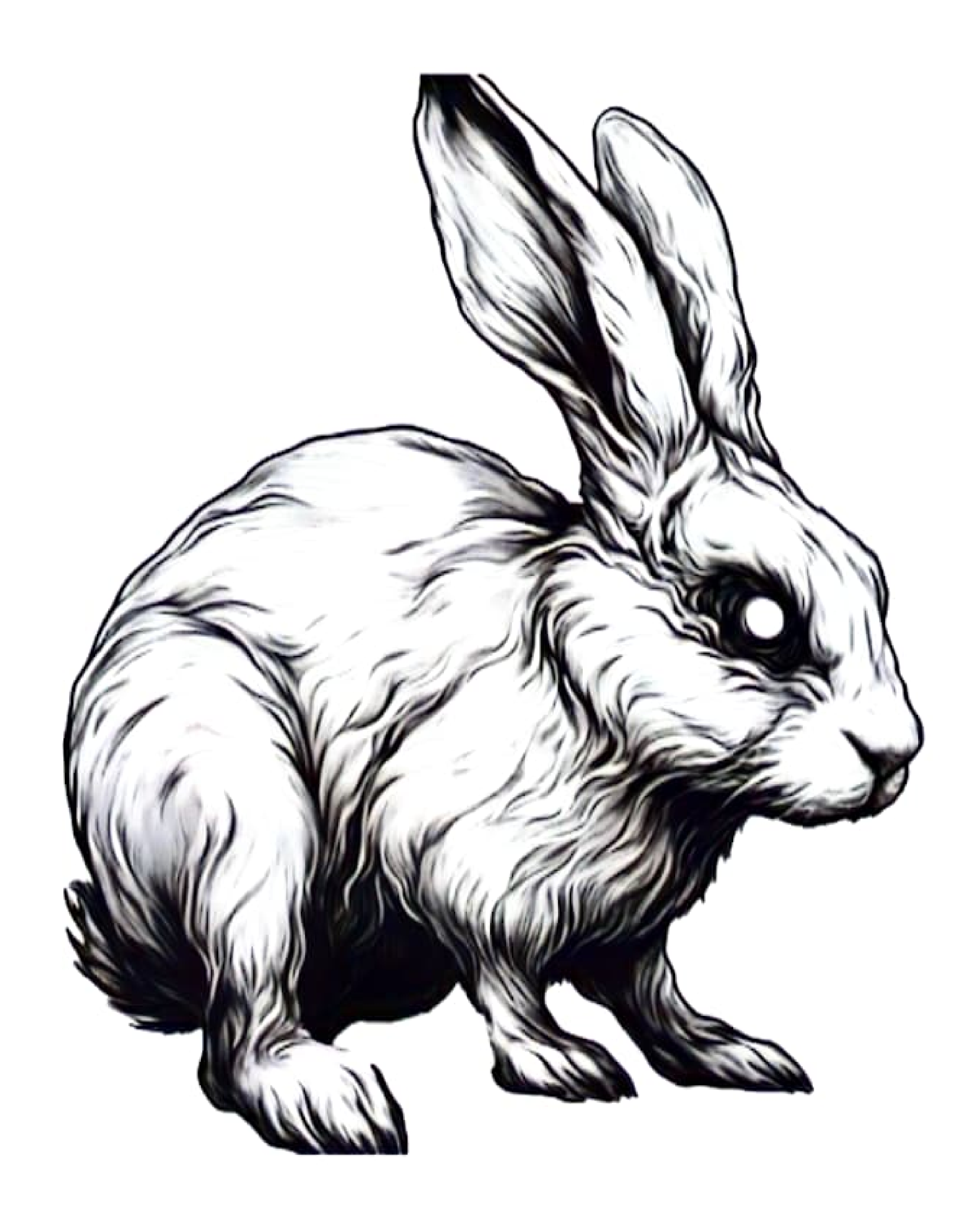
وضحكا سويًا وهما يكملان طعامهما.

***



الفصل الثالث

أنا وهؤلاء





تعجبي الدائم عندما تزورني كنزي في العيادة، هو كيفية أن يمتلك أي مخلوق في المطلق تلك المقدرة على خيانتها، هي بالفعل تقترب إلى حد كبير من الكمال، ولولا الإيمان المتبقي داخلي ويقيني أن الكمال لله وحده، لقلت بعلو الصوت إن تلك الكنزي كاملة كمال البدر، بل أكثر من ذلك...

تفاصيلها لا تشبه أحدًا في المطلق، جمالها صارخ مؤلم إلى العين والمشاعر...

إن كنت تعودت طوال سنوات حياتك على النظر إلى القمر فقط، لحتما ستتأذي عيناك من رؤية نور الشمس...

- مش احنا صحاب؟

- طبعًا يا يونس... أكيد...

- طب بما إننا صحاب، أنا عايز أشاركك حاجة بتدور جوه دماغي...

- حاجة إيه؟

- أنا حاسك بتكدبي يا كنزي... حاسس إنك مش بتحكي كل حاجة، أو الأسوأ... بتغيري الحقيقة...

***

بحكم العادة والعشق، أهرب إلى الإسكندرية بعد نهاية أسبوع عمل طويل. في الطريق أبحث بيدي على سي دي أستمع إليه في رحلتي، بحكم العادة أيضًا لا أختار شيئًا محددًا لأستمع إليه، بل أترك يدي تفاجئني باختيارها وقد أسعدني الاختيار فعلًا...

تخللت موسيقى خالد حماد إلى داخل روحي وأنا أستمع لموسيقى فيلم "أحلى الأوقات"، أتذكر هذا السي دي جيدًا، كان هدية من ريماس منذ سنوات، كان نهارًا شتويًا، قابلتها لأول مرة بعد إحدى ندواتي بدأت كل شيء بابتسامة صافية ويد ناعمة تمتد لكي تلامس يدي، تُداعب قلبي وتستولي بالكامل على روحي...



- ريماس الفقي، من أشد المعجبين بحضرتك وأفكارك

- شكرًا يا ريماس وحقيقي نورتيني

- ....

- انتي عايزة تقولي حاجة... قوليها على طول ما تتكسفيش...

- إيه اللي خلاك تفكر إني عايزة أقول حاجة؟

- ما هو انتي مش هتيجي المسافة دي كلها وتسمعي الندوة وتستني لما كل الناس مشيت عشان تحكي لي عن إعجابك بأفكاري... ولا إيه؟

- بصراحة أنا بقالي شهور بحاول أوصل لك... تقدر تقول معجبة، ينفع أعزمك على قهوة؟

- أنا ليه حاسس إني بتشقط!

قلتها وأنا أضحك كمحاولة مني لإزالة كل هذا التوتر والغيمة التي تحيط نبضات قلبي الغير منتظمة في الوقت الحالي، وبعدما شعرت أنني ربما أكون قد أحرجتها، ابتسمت وأكملت كلامي:

- عمومًا أنا قهوتي مظبوطة... أعرف كافيه حلو أوي قريب من هنا...

تركت أوراقي وأفكاري وأخذت فقط قلبي معي لعله يكون طوقًا للنجاة ولكني أكتشفت أن قلبي لم يفعل شيئًا سوى رميي في هذا البحر العميق ومشاهدتي وأنا أغرق... أغرق... أغرق...

***

في غرفة المعيشة بمنزله، جلس شريف مستلقيًا على أريكته يشاهد التلفاز، لا شيء مبهر حقًا، توقف للحظات عند قناة ناشيونال جيوجرافيك التي كانت تعرض حلقة عن صيد أسماك التونة في اليابان، تذكر وقتها النونو الذي أتي إليه هذا الصباح وقصة الفتاة المختفية، قرر أن يبحث عنها على الفيسبوك ولكنه أصيب بإحباط شديد عندما وجد المئات من الذين يحملون اسم



حنين، سيذهب للفيوم في الصباح، هذا ما قرره في تلك اللحظة، سيبحث عن المزيد من المعلومات عنها وسيجدها وينهي تلك القصة...

المسافة من القاهرة إلى وادي الريان تقريبًا ساعتين، لم يكن البحث عن النونو أمرًا صعبًا، الجميع يعرفه والجميع يلقبه بالريس الكبير، استقبله النونو بحفاوة كبيرة وامتنان شديد لاهتمامه باختفاء حنين...

- الوادي كله نور يا شريف بيه...

- منورة بيك يا ريس نونو... دا انت طلعت أشهر من عادل أمام يا راجل

- ربنا يديم علينا حب الناس يا باشا... تشرب إيه يا باشا ولا نحضر الغدا على طول؟

- كرمك سابق يا ريس نونو... أنا جاي عشان البنت اللي اختفت؟ لسه ما ظهرتش؟

- لسه يا باشا... بس أنا عرفت أوصل لنمرتها وكنت هاجي لحضرتك النهارده، بس المشكلة يا باشا إن نمرتها مقفولة

- اديني طيب النمرة وأنا هتصرف ما تقلقش، لو في جديد هبلغك...

***

لماذا اخترت هذا المجال تحديدًا يا يونس؟

لم أعد أستطع تذكر عدد المرات التي أسمع فيها تلك الجملة السخيفة، جملة شبيهة بجملة "مش هنفرح بيكي بقى يا حبيبتي؟" التي تسمعها الفتيات دائمًا...

بعض الأشياء تحدث، لأنها يجب أن تحدث... لا لسبب محدد...

***

تردد دائم يدور في عقل تيا، خوف من الحكي واحتياج دائم للبوح



بكل ما في داخلها، تخاف من أن يحكم أحد عليها، تخاف أن يراها الناس مطفأة وهي اللامعة دائمًا. تخاف أن يراها الناس ضعيفة وهي الأقوى على الإطلاق في المدرسة وحتى الجامعة. لا تهتم بما يراه الناس ولا تقع في شباك هؤلاء الشباب المتعطشين للوصول إلى قلبها أو أي منطقة أخرى في جسدها...

القصة التي أثرت عليها بشدة كانت قصة الأستاذ هادي، مدرس الفلسفة في الثانوية العامة، كائن رخوي هو يظهر عليه الأدب والأخلاق في البداية، ولكن فور أن يقترب منك سيحيطك بكل ما أوتي من أذرع، يشبه إلى حد كبير الأخطبوط في تفاصيله، أذرعه تحتوي على مصات للتشبث بالضحية، ينفث حبره فيصيبك بالعمي، ينقض على ضحيته من الأعلى ويسحبها رويدا إلى داخل فمه. الأستاذ أخطبوط هذا يمتلك عيونًا منتفخة لكي يراك ويراقبك في صمت لكي يتمكن من دراستك، ماكر هو، متأقلم مع الظروف المحيطة، يسبح ويزحف و يمشي ويدفع نفسه دفعًا إن لزم الأمر، ولهذا لم يكن من الصعب عليه الإيقاع بتيا...

- ينفع أقابلك بدري شوية النهارده قبل ما تيجي مريم؟

- انتي كويسة؟

- عايزة حد أتكلم معاه، حد يسمع من غير ما يحكم عليا...

- طبعًا... أنا هكون في العيادة كمان ساعة...

***

دلفت مكتبي بالعيادة، أقف أمام الشرفة المغلق زجاجها فأرى انعكاسًا غير واضح لنفسي فيه ، هذا الزجاج يراني أفضل من أي مرآة عادية، شخص باهت، شخص مصاب بالارتباك أو بالتيه، شخص يري نفسه... في الواقع شخص لا يري نفسه...

أسمع صوت خطوات أقدامها، تلك الطفلة التي لا تقل خطورتها عن أي



سيدة ناضجة، اقتحم عطرها غرفتي قبل إن تستأذن بالدخول...

- اتفضلي يا تيا

- آسفة لو كنت نزلتك بدري؟

- لا أنا متعود أنزل بدري شوية قبل أي ميعاد... ما تقلقيش...

- عمرك حبيت؟

- ومين ما حبش...؟ بس انتي جاية قبل مريم عشان تسألي عن حالتي العاطفية؟

- أنا جاية قبل مريم عشان أحكي لك عن وجعي... عشان كل اللي بيسمع يحكم وأنا اللي يحكم عليا بيضعفني وأنا ما اتعودتش أكون ضعيفة...

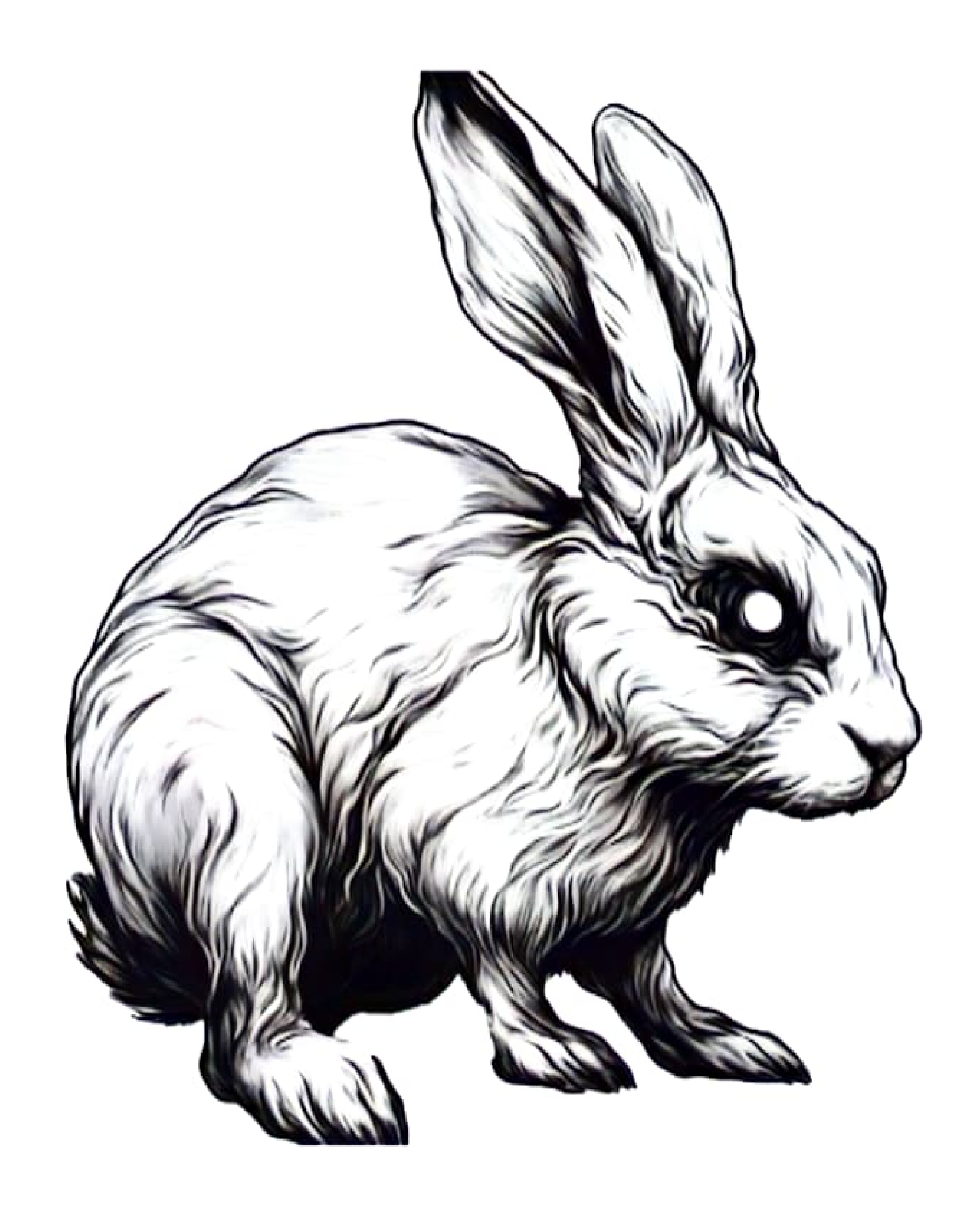
- تقدري تحكي أي حاجة... ومن غير أي حكم...

***



الفصل الرابع

مرض يدعى الحب





الأضواء حارقة!

عيناه أصابهما الجفاف من شدة وميض الكاميرات التي تتبعه في كل حركة يخطوها أو نفسٍ يأخذه، أهي ضريبة الشهرة؟ تبًا للشهرة إن كانت ستأتي ويأتي معها العمى والمرض والصداع الذي لا يفارقه...

حاتم نور، الفنان الذي صعد سلم الشهرة والنجاح في وقت قياسي، الذي تمنى النجاح والمال وحصل عليهما ومعهما الاكتئاب والإرهاق والوجع...

بدأ مشواره منذ خمسة أعوام تقريبًا، موهبته كانت الوسيط الوحيدة له، من دور صغير في فيلم سيء إلى دور أكبر في مسلسل بطله نجم كبير، ثم دور كبير في الجزء الجديد من سلسلة أفلام شهيرة وناجحة، وها هو يقف الآن يلوح بيده إلى جمهوره أمام إحدى دور العرض احتفالًا بالعرض الخاص لفيلمه الجديد والذي يلعب فيه دور البطولة المطلقة.

في العام الماضي لعب دورًا رومانسيًا في فيلم أشاد به الجمهور والنقاد سويًا، كم كان رائعًا وهو يجسد شخصية الصحفي الذي يقع في حب تلك المسجونة، وقرر إن يحارب المجتمع لكي يثبت براءتها، وها هو اليوم يقف مبتسمًا في العرض الخاص لفيلمه الجديد الذي يلعب فيه شخصية ضابط شديد الذكاء يحاول الإيقاع بمجموعة من الإرهابيين...

- مبروك على الفيلم

- عجبك؟

- للأسف الفترة دي ما عنديش وقت أعمل أي حاجة مسلية، بس هو أكيد فيلم عظيم زي كل أعمالك

- شكرًا يا دكتور يونس...

- أقدر أعرف سر تشريفك ليا النهارده؟

- أنا حاسس بحزن كبير أوي في حياتي... حاسس إني لوحدي أوي...



- احكي لي أكتر

- عارف لما يبقى نفسك تقسم السعادة على اتنين؟ نفسك تقسم خروجك أو ضحكتك، نفسك حتى تقسم عمرك كله على اتنين... هي دي المشكلة...

***

هل كل الناس مصابون بالأمراض النفسية؟ أيوجد حتى في المطلق إنسانًا سويًا وخاليًا من المشاكل والأمراض؟ أهناك من يستحق أن يعيش حياة لا يشوبها أذي نفسي أو عصبي؟ وإن كانت الإجابة بنعم... فمن حقًا يستحق؟ هل أستحق هذا أنا؟ أمن يعالج الناس قادرًا إن يعيش متعافيًا؟

أنا يونس، أقر إنني لا أستحق أن أعيش سعيدًا، السعادة كنز لا يجده الكثيرون ولا يستحقه الكثيرون...

لماذا أتهم كنزي بالكذب؟ لماذا لا أكون أنا من يكذب أو يتجمل لكي أصل لما أريد، ولكن أليس ما أريد هو ما يريدون هم أيضًا؟

***



عزيزي ثيو،

"لا نستطيع دائمًا أن نحدد ما الذي يبقينا محبوسين، يدفننا ... ولكننا نشعر بالحواجز، البوابات. هل هي محض أوهام؟ لا أظن ذلك. ونسأل "يا إلهي، إلى متى؟ هل سيستمر ذلك إلى الأبد ؟"

أتعرف ما الذي يستطيع تحريرنا من هذا السجن ؟

العاطفة القوية الحقيقية، الحب بقوته السحرية، يمكنه ذلك... و لكن... ما هو الحب يا ثيو؟ ومتى سنتأكد إن كان هذا الحب حقيقيًا حقًا.. أم مثله مثل الخيالات الدائمة.."

فنسنت



الجلسة يخيم عليها الخنقة، أتت مريم بعد تيا بساعة تقريبًا، رأسي مليئة بالأفكار والتعجب، عليّ الاعتراف أنني لم أكن منتبهًا تمامًا في تلك الجلسة، حاولت أن أشغلهم ببعض الكتب والمراجع عن بعض الأمراض النفسية الشهيرة والشائعة...

الاكتئاب، الهوس، الانفصام أو الذهان...

في المراجع التي بدآ في قراءتها بعض الأمراض التي استوقفتهم...

متلازمة ديوجانس كبداية، ترتبط تسميتها باسم الفيلسوف الإغريقي ديوجين؛ لكونه أصيب بها في آخر فترات حياته، حيث يقال إنه أهمل نفسه بشدة وزهد الحياة، لدرجة أنه كان يعيش داخل برميل نبيذ ولم يكن يملك أي شيء... وكان معتاداً على ضبط النفس والتقشف الصارم معرضًا نفسه إلى البرد والحر الشديدين... فكان يرتدي عباءة خشنة ويحمل عصا ومحفظة صغيرة ويعيش وسط الكلاب ويحمل مصباحًا يتجول به ليلًا ونهارًا بحثًا عن إنسان صالح... أو ربما حتى بحث عن نفسه، و هي من أشهر وأغرب المتلازمات النفسية على الاطلاق ويظهر على المصاب بها ما يُظهر لديه الرغبة في امتلاك الحيوانات، فتجده يحبها ويتعامل معها باندماج وتفاهم عجيب، في المقابل هناك رفض وكراهية بالغة للبشر، يبدو عليه الإهمال الحاد للذات، والميل للعزلة بشكل متطرّف، ومن أهم علامات هذا الاضطراب أيضًا بعثرة الأشياء في مكان المعيشة والسلوك الفوضوي، الادخار أو البخل المفرط، الاحتفاظ بأشياء عديمة الفائدة لتخليد الذكرى، إهمال نظافة المكان والمظهر والصحة، اللامبالاة والمصابون بهذه المتلازمة نلاحظ عليهم هذا التغيير في حياتهم وقد يتجهون للإدمان أحيانًا مع ملاحظة أن أي شخص يظهر عليه أيا من هذه الأعراض ليس بالضرورة أنه يعانى متلازمة ديوجين؛ بل قد تكون أعراض عابرة أو سمات شخصية أو مصاب باضطراب آخر، أما عن الفئات الأكثر إصابة؛ فيعد كبار السن هم الأكثر عرضة للإصابة بالمتلازمة، والمصابين بانهيار جسدي أو عصبي أو عقلي مرتبطٍ بالخرف وصغار السن الذين يعانون ضغوطًا نفسية، الذين يعانون



من حرمان شديد في حياتهم الأولى، من فقدوا أشخاص من الأقارب والأصدقاء أو من لديهم القدرة لتذكر الإحباطات والأحداث المؤسفة أو الأبناء الذين لا آباء لهم فيعانون من هذه المتلازمة، والذين يعيشون بمفردهم، مرتفعي الذكاء.

أما عن الحلول، العلاج قد يأخذ وقتًا طويلًا... فمن الصعب جدًا تقديم الرعاية الطبية للمصابين لنفورهم من الأشخاص وخوفهم من المؤسسات الطبية... ولكن يمكن تهدئة هذه الأعراض عبر بعض الأدوية... ومن ثم البدء بدعمهم النفسي وإرشادهم بحذر شديد، وفى حالة رفضهم علينا الانسحاب، ثم المعاودة وهكذا إلى أن نكسب ثقتهم بجانب العناية بنظافتهم وتغذيتهم...

- تفتكروا المصاب بالمتلازمة دي شخص محتاج مساعدة؟

- أصل لو أنا شخص فيا الصفات دي، مش يمكن عندي شعور بالاحتياج أكتر من كوني مريضة؟

- خليني أحكي لكم عن حاجة أسوأ...

- أسوأ من دا؟

- أسوأ بكتير في الحقيقة...

- ....

- في سنة ١٨٨٠، واحدة ست اسمها مادموازال أكس أو الآنسة أكس، راحت للطبيب الفرنسي كوتار، كانت بتشتكي من أحاسيس مزعجة زي الكرب وفقدان الأمل، وكانت بتشكي من عرض آخر أكثر خطورة، كانت بترفض الأكل والشرب لأنها كانت بتعتقد إنها ميتة، كوتار سمى المرض دا بمتلازمة كوتار، و من سنة ١٨٨٠، تم توثيق عدة حالات نادرة عن متلازمة كوتار، وفي العديد من الأوقات كان يتم تشخيص المرض على إنه اضطراب عقلي مثل السكيزوفرينيا أو انفصام الشخصية، وبسبب ندرة



هذا الاضطراب العقلي كان يتم تجاهله أو عدم رصده واكتشافه لدى معظم المصابين به في أغلب الأوقات... المرض دا بالمناسبة غير مرتبط بأي ألم جسدي، يعني المصاب بيبقى صحته كويسة، بس فعلًا بيتوهم إن أعضاؤه كلها ميتة...

- و دا ليه علاج؟

- الموضوع كله مرتبط بالإقناع يا مريم، طول ما أنا عندي القدرة إني أقنعك بأي شيء، يعني على سبيل المثال، متلازمة فريجولي بيبقى المريض متخيل وحاسس إن جميع المحيطين به هم شخص واحد يتنكر بوجوه ويلبس أقنعة مختلفة بهدف إزعاجه. هو دا بقى توهّم فريغولي، كأن الشخص دا شاطر جدًا وموهوب جدًا في التنكر ويقدر يبقى أي شخص عشان يخلي حياتك جحيم، وكل الحالات دي بيبقى في الأغلب علاجها بالإقناع...

***

كما توقع تمامًا...

لا أحد يجيب والنمرة لا وجود لها من الأساس...

شريف بدأ يشعر بالارتياب، حسه الأمني يخبره أنا ما يحدث ليس بمصادفة، من أنت يا حنين؟، سأل نفسه...

- أنا عايزك تعرف لي صاحبة الصورة دي يا هيثم

- تحت أمرك يا شريف باشا

صورتها تكفي بأن تبحث عنها لأعوام وأعوام، بسيطة هي، والسر كله يكمن في البساطة، هلال وليس بدر، سلسبيل وليس بحر، سر وليس أسطورة...

في الصورة تبتسم بصدق فتظهر الكرمشة حول عينيها من شدة السعادة، فستانها الأزرق الجميل زادها روعة، شعرها الناعم شديد السواد زاد السحر سحرا، من قد يؤذيها؟ من قد يجرحها؟



- حنين ساعات بتخبط على باب أوضتي في نص الليل يا يونس، بتبقى عايزة تحكي حواديت، وفي أوقات تانية بتبقى محتاجة تسمع حواديت تطمنها وتخليها تعرف تنام، بقيت بحفظ حواديت عشان أقدر أسعدها، حكيت ليها مرة عن قط كان مش عارف هو عايز إيه... كان تايه ونفسه يبقى أي شيء ليه فايدة أو قيمة، كان بيبص على الطيور ويحاول يطير زيها لكن بيفشل، كان بيشوف السمك ويحاول يعوم زيه بس كل مرة كان بيبقى هيغرق، لدرجة إنه قرر يبقى فاكهة لجاب قشر الفاكهة وحطها عليه ولما باقي الحيوانات شافوه حاولوا ياكلوه لقى نفسه بيعرف يجري ويهرب بسرعة... ووقتها بس عرف قيمة قوته... القط دا مش جبان يا شريف، صح؟

- على حسب إنت شايفه ازاي... كل شيء بيتحدد على حسب انت شايفه ازاي...

***

في صباح هذا اليوم، حكت لي تيا عن هادي، ظهر في بادئ الأمر على هيئة الأستاذ المحب العطوف، الذي يحمل كل صفات الأب والأخ الأكبر، وفي تلك الفترة يبدأ في بث سمومه ببطء حولها لكي تقع في شباكه، يطلب منها دومًا إن تحكي له عن أسرارها، إن تحكي له إن كانت معجبة بشاب في سنها، ويوبخها كثيرًا وكثيرًا إن كانت في علاقة حب عادية مع أحد من زملائها، يخبرها دائمًا إنها أميرة وملكة وياقوتة، يجعلها تشعر إنها البنت الأخيرة على وجه الأرض وأن ليس لها مثيل ولا بديل، يعرض عليها درسًا خاصًا بلا مقابل؛ لأنه يراها نابغة وذكية ولا بديل عن أنها تصبح الأولى دائمًا...

حكت لي عن هذا اليوم الأسوأ في حياتها...

- كانت الدروس دايمًا عندي في البيت، عمره ما كان بيعمل أي حاجة غريبة، حتى لما كان بيقول لي كلام حلو وكلام حب كان بيخليني أحس إني مهمة أوي وغالية أوي... مش زي أي بنت، أنا أصلًا مش بدي حد



الفرصة أنه يقرب مني ومش أي حد يقدر يقرب مني يا يونس، بس فكرة إن واحد أكبر مني بـ 15 سنة بيعاملني كدا خلاني أحس إني بجد ملكة! ! اليوم دا كلمني وقال لي إنه عيان وإن الدرس هيكون عنده في البيت، رحت وأنا مفيش في دماغي ولا أي حاجة، و... وحصل اللي حصل...

- حاولتي تحكي لأهلك؟

- مستحيل، أنا بابا من سوهاج، آه هو بيلف الدنيا ومش مقفل تمامًا بس لو عرف حاجة زي دي هيقتلني، أنا رحت له بيته... ومين يومها وأنا فعليًا مش بتعامل مع رجالة، بابا الوحيد اللي بقدر أتعامل معاه.. حتى الكلية مش بروحها.. هو أنا مجنونة؟ لما حد من قرايبي بيقرب مني بحس إني هموت، بدوخ ونفسي بيزيد، بترعش وبعرق.. أنا حياتي باظت بسببه..

- اللي عندك دا اسمه أندروفوبيا أو رهاب الذكور، ودا طبيعي في حالتك يا تيا.. بس في حالات أسوأ منك بكتير، بدليل إنك قاعدة معايا دلوقتي وبنتكلم أهو..

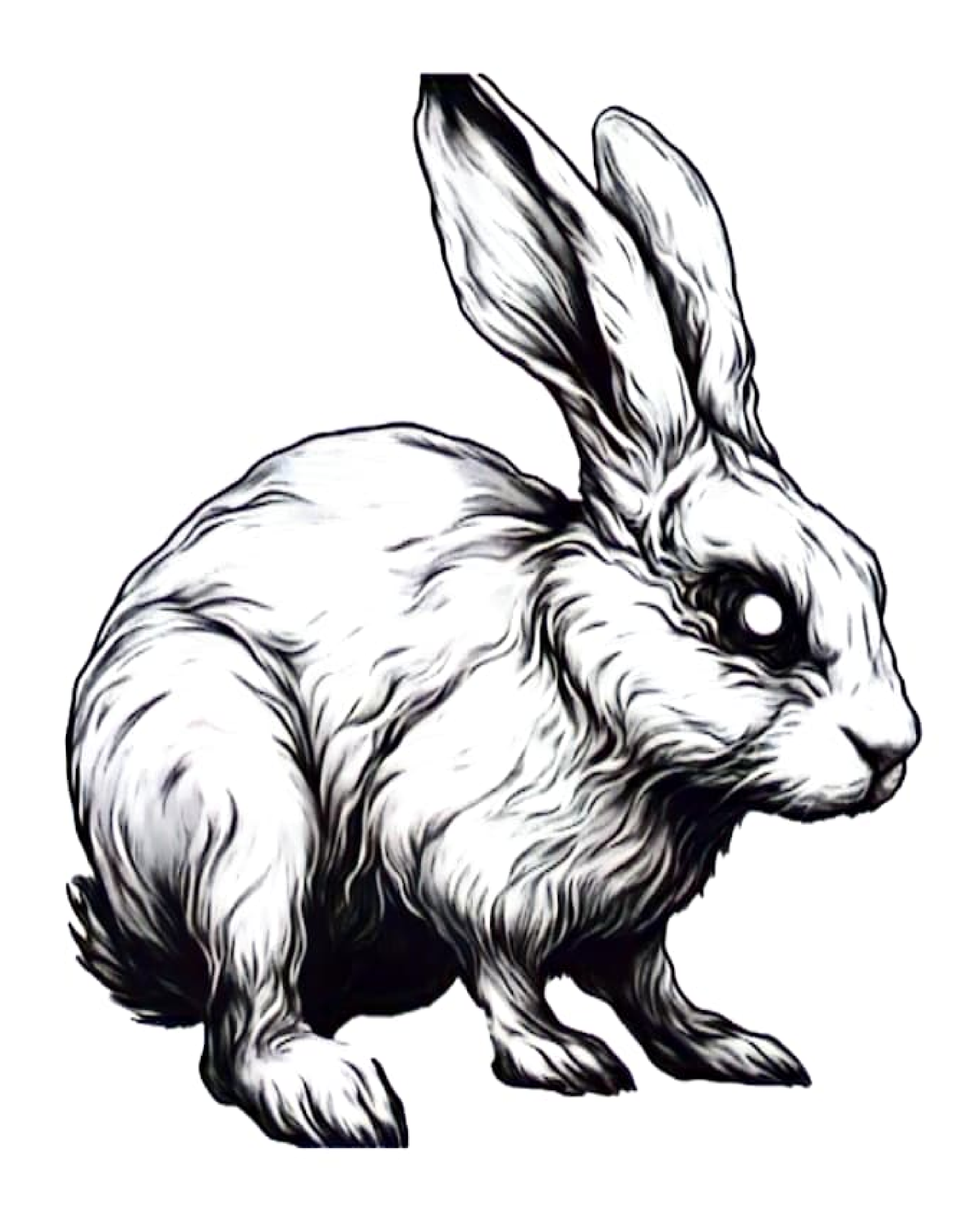
- إنت أول راجل أقعد معاه لوحدي من سنين يا يونس...

***

أجلس وحيدًا في العيادة، أنظر من النافذة لأستنشق بعض الهواء، السماء لونها يميل إلى الأحمر، أسمع أصواتًا صاخبة تشبه الانفجار، أنظر إلى السماء فأرى نيازك صغيرة تتساقط على الأرض فتدمر ما عليها، أسمع صوت صراخ فأنظر إلى مصدره لأرى ريماس تبكي وهي تحاول أن تتفادى تلك النيازك، أنادي عليها ولكنها لا تجيب، أحاول أن أذهب إليها ولكن فروعًا من الأشجار تخرج من باطن الأرض وتحيطني وتمنعني من الحركة، أحاول أن أصرخ ولكن أسناني تنغرز في لساني فأفقد القدرة على الحديث، أصرخ مرة أخيرة من الألم، فأفتح عيني لأجد نفسي في العيادة مرة أخرى وأن كل هذا كان كابوسًا مزعجًا كالعادة، أشرب بعض الماء وأذهب لأستنشق هواءً حقيقيًا تلك المرة...

الفصل الخامس

ملاك بلا جناح





"قول ورايا يا أستاذ يونس... و على مذهب الإمام أبو حنيفة النعمان"

- مبروك يا عروسة... شكلك زي القمر وانتي حاطة الوردة دي في شعرك... شبه الملايكة

- و هما الملايكة بيحطوا ورد في شعرهم؟... الملايكة عندهم جناحات

- يا سلام... و انتي عمرك شفتي ملاك يا ريماس؟

- لا... بس هما بيترسموا كدا

- أنا شايف إن الجناحات دي مجرد رمز... رمز بيوضح طهارة وجمال الملاك...

- طب ما الغراب والبوم عنده جناحات... ما تعملش دكتور بقى وفيلسوف عليا

- أطلقك طيب ولا أعمل إيه أنا دلوقتي...؟

تزوجتها! في أغلب الأوقات عندما تسأل رجل عن سبب حبه للفتاة التي يحبها، تأتي الإجابة في أغلب الأوقات محملة بكلمات معادة معروفة مثل "عشان هي شبهي" أو "عشان هي مختلفة" أو "عشان فيها كل الحاجات اللي دورت عليها ولقيتها فيها"، أما عن ريماس، فحقًا كان السبب مبهمًا تمامًا بالنسبة لي، أتذكر هذا اليوم جيدًا، يوم جلسنا في هذا الكافيه وشربنا القهوة، كان اللقاء سهلًا مريحًا يدفعك لتطلب اللقاء التالي بلا تردد، وفي المقابلة السابعة طلبتها منها...

- تتجوزيني؟

- أنا؟

- لا، بقول للويتر... يا سخيفة، أيوة طبعًا انتي

- و أنا طبعًا موافقة يا يونس...





بعض الأحاديث كانت تحتاج لمترجم بالنسبة لريماس في كثير من الأحيان، كانت لا تفهم ما أقول أو تدّعي عدم الفهم لكي أشرح أكثر وأكثر...

كنت أكره الشرح، الأشياء تكون أجمل وأنقى إن تركناها مجردة وخالية من أي شرح، بعض الأشياء تظل ساحرة حتى يبدأ البشر في التدخل فيها ومحاولتهم تعديلها...

- طيب تعالى نتفق

قالتها ريماس في جدية وحنان في نفس الوقت...

- نتفق على إيه؟

- يعني... شكل حياتنا مثلًا...

ابتسمت وأنا أعتدل في جلستي وأجيبها ممسكًا يدها...

- وليه نتفق...؟ دي حياة يا ريماس... مش عقد... احنا بنحقر من الحب بدافع الخوف من بكرة أو حتى الخوف من الفشل، بنرتب دنيتنا ونحط قواعد لنفسنا ونحط قواعد لبكرة وفي الواقع كل شيء أبسط بكتير من كدا...

- ساعات مش بفهم كلامك

- أنا كمان... أنا كمان ساعات كتير مش بفهمني...

***

تحتسي قهوتها في توتر، عدم قدرتها على الإمساك بالفنجان جيدًا يشبه كثيرًا عدم قدرتها على الإمساك بزمام حياتها الملتوية...

في طفولتها كانت تكره الذهاب إلى مدينة الملاهي، كانت ترى نفسها أشبه بقطار الموت، كنزي الملتوية صعودًا وهبوطًا، كنزي التي تقلب الحياة كلها رأسًا على عقب...



- أنا مش بكدب... أنا بس يمكن مش بعرف أواجه

- شايفة نفسك خاينة؟

- و مين في الدنيا مش خاين يا يونس...؟

- بلاش تبرري أفعالك بتعميم الفعل، العالم مش كله خاين يا كنزي...

- ساعات بنشوف حاجات وبنفتكر إن هو دا اللي احنا عايزينه... بس بنطلع في الآخر غلطانين... عمرك كنت مبهور بحاجة أوي في الأول وبعد شوية زهقت منها؟

- كتير... بس في حاجات دائمة... بتعيش وتكبر كل ما احنا بنعيش ونكبر... ما كنش ذنبه إنه حبك وما كنش ذنبه إنه إدى لك كل حاجة عشان يشوفك مبسوطة... وبرضه أنا لسه مش فاهم... انتي عايزة حد يساعدك ولا عايزة حد يطبطب عليكي ويحسسك إنك مغلطتيش في أي حاجة؟

- الغلط دا يشبه الدايرة، كل واحد ممكن يحط نقطة عليها ويقرر إن هي دي البداية... وماحدش في الآخر بيبقى غلطان... كل واحد بيبقى عنده الصح بتاعه يا دكتور...

***

أعود دومًا إلى البدايات، التاريخ يفيد الحاضر دائمًا...

- اكتب لي هنا حكاية صديقك الخيالي يا شريف... اللي مرة قلت لي عليه.

"في طفولتي كنت طفلا مختلفا...

في طفولتي عشت كثيرًا مع الألم حتى أصبح جزءًا لا يتجزأ من تكويني...

لا أعيش سعيدًا ولا أنام حتى سعيدًا، أتعايش كل ليلة مع كوابيسي، في البداية كنت أرتعد خوفًا منها، ومع الوقت أصبحت أعرف شخصيات



كوابيسي معرفة جيدة، أصبحوا أصدقائي، أهرب من كوابيس الصحو وأقابلهم في كوابيس النوم، الشخصية الأكثر غموضًا وقربًا لي وقتها كان اسمه "زيتون"، كان في بعض الأحيان شريرًا مخيفًا وفي بعض الأوقات طيبًا مضحكًا، يحكي لي في بعض الليالي عن الأساطير، وفي ليالي أخرى يحكي لي قصصًا مرعبة...

في بعض الأيام كان زيتون يأخذ شكلًا بشريًا ويأتي ليلعب معي في غرفتي وأحيانًا يتشكل في هيئة رجل مسن شكله مضحك، أما عن تحوله الأقرب إلى قلبي وقتها كان عندما يتحول إلى قط...

لم يكن أحد يصدقني عندما أحكي له عن صديقي زيتون، وكان يوبخني كثيرًا عندما يعلم إنني حكيت لأحد عنه، كان يهددني كثيرًا بالاختفاء من حياتي ومن أحلامي وكوابيسي، و لكنني كنت صغيرًا فلم أكن أنصت إليه، وبالفعل في يوم من الأيام قام بالاختفاء ولم يعد مرة أخرى ...

في الواقع هو عاد في عدة مرات قليلة، أتذكر هذا اليوم جيدًا عندما كنت في المدرسة، كنت وقتها في الحادية عشر من عمري، في دورة المياه قام ولدان متنمرين بوضع رأسي في المرحاض، بكيت كثيرًا ولم أخبر أحدًا، وفي صباح اليوم التالي عندما وصلت إلى المدرسة، كان الجميع يقفون في دائرة يصرخون، اقتربت منهم لكي أجد الولدين المتنمرين محروقين بشكل مخيف، وتبدو على جثتيهما آثار تعذيب واختناق، أما عن أعينهما فبدا عليهما آثار الرعب، كأن من قتلهم قام بإخافتهم قبل إن يقتلهم، كأن من قتلهم ليس إنسانًا...

- زيتون!!

ليس مختلًا ولا مريضًا... العباقرة فقط من يخلقون أصدقاءً خياليين...

- الحاجات لما بتزيد عن حدها بتنقلب لضدها يا شريف

- تقصد إيه؟



- تسمع عن نيكولا ميكافيللي؟ وشك بيقول إنك ماتعرفوش... دا راجل محترم أوي، كان فيلسوف وسياسي ومفكر... من الناس اللي عرفوا البشرية كلها معنى كلمة سياسة، الراجل دا لما اتنفى بدأ يبقى إنسان تاني، كان أوقات كتير أوي فيها لوحده، كتب مرة عن أصدقاؤه الوهميين اللي بيقابلهم في منفاه وقال "عندما يأتي المساء، أعود إلى المنزل وأذهب إلى دراستي، على العتبة أخلع ملابس العمل الموحلة، التي تفوح منها رائحة العرق، وأضع علي جلباب المحكمة والقصر، وفي هذا اللباس القاسي أدخل المحاكم العتيقة للقدماء ويرحبون بي، وهناك أتذوق الطعام الذي هو لي وحدي، والذي وُلدت من أجله. وهناك أتحدث بجرأة إليهم وأطلب دوافع لأفعالهم، وهم، في إنسانيتهم، يردون عليّ. وعلى مدى أربع ساعات، أنسى العالم، ولا أذكر أي عجز، ولا أخشى الفقر، ولا أرتجف بعد الآن من الموت: فأنا أعبر في الواقع إلى عالمهم"

- ...

- هو ما كنش مجنون بالمناسبة، ولا انت كمان مجنون...

***

لا أثر لها على الإطلاق! !

هذا ما قيل لشريف عندما طلب أن يبحثوا عن صاحبة الصورة! !

لا أثر لها في السجلات! ! لا شيء! ! من يحملون اسمها وعمرها عددهم يزيد عن الـ ٥٠ ألف فتاة! ! هو كمن يبحث عن قشة في كوم قش! !

في صباح أحد الأيام كان جالسًا وسط الأوراق والرسومات حتى أستقبل مكالمة غيرت مزاجه تمامًا، كانت المكالمة من فتاة تبكي وتخبره أن لديها معلومات عن الفتاة المختفية حنين...

كانت شابة شديدة الجمال، يظهر عليها أثار البكاء والحزن...

- شكرًا، لأن حضرتك جيت تقابلني

- تحت أمرك... و بعدين دا شغلي...

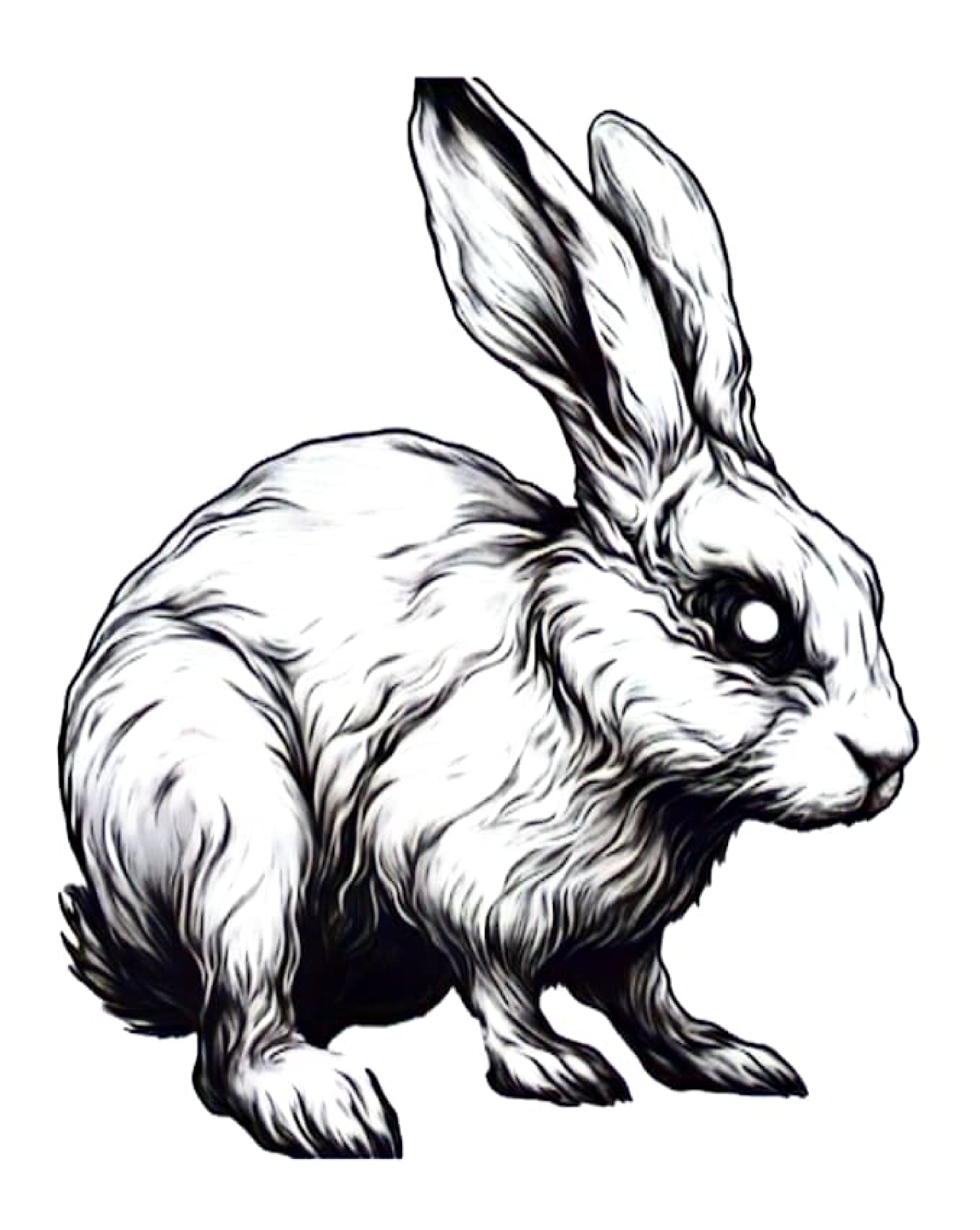
- أنا تقى، أعرف حنين من زمان...

***



الفصل السادس

زيتون





طلبت من شريف إن يكتب لي في يوم عن زيتون، يصفه ويحكي أكثر عنه، كتب وقال:

كان زيتون هو نعم الصديق، ليس بسبب طيبته أو صفاته الحسنة، ولكن أن يظهر شخصً ويتجسد ويخلق من كوابيسك ليكون كل شيء أنت لست عليه هو حلم كل إنسان ضعيف وجبان مثلي...

كان هو من ينتقم لي إن حدث لي مكروهًا من أي شخص كان، كان هو من يواسيني في كل أوقاتي العصيبة وأنا أكاد أجزم إن طفولتي كلها كانت أوقاتًا عصيبة...

هو لم يكن مارد ولا جن، على حسب اعتقادي، هو شيء أخر، أراه كما أرى نفسي في المرآة، يتغير ويتجسد ويتلون، زيتون كان الملاذ في الوقت الذي لا ملاذ لي سواه، كان تذكرة عبوري من خلال كل ما كنت أخاف منه، يجعلني أفكر في أمور لم أعتقد في يوم ما إنني قد أفكر فيها أو أفعلها، على مدار أعوام كثيرة كان يجاري تطوري العمري، يواكب احتياجاتي كطفل؛ ثم كمراهق، ورغم اختفائه لعدة أعوام بعد سنين المراهقة والنضج إلا أنه عاد بقوة بعدها، لا أعلم إن كان هذا بسبب شعوره باحتياجي له أو لانفجاره أخيرًا بعد مدة حبس مطولة...

أتذكر هذا اليوم جيدًا... يوم اكتشافي لخيانتها لي، تلك الملاك الملتوي الذي لا يظهر عليها أي شيء، خرج لي زيتون على هيئة رجل خمسيني على أفضل تقدير، شديد الصرامة والأناقة، يرتدي حلة سوداء وشعره الفضي المصفف بعناية أضاف على شخصيته الغامضة الكثير من السحر والهيبة...

- انت مستني إيه عشان تموتها؟ تيجي شايلة لك عيل في إيدها؟

- زيتون! !

- وحشتك طبعًا

- انت رجعت تاني؟ ! الناس كلها كانت بتقول عليا مجنون لما بحكي



عنك، و عشان كدا بطلت أحكي لما اتأكدت إني مريض... هو أنا اتجننت تاني؟!

- كفاية محن النسوان دا! ! أنا مش جاي عشان تحكي لي قصة حياتك التافهة، أنا جاي عشان أساعدك ونشوف حل في البلوى اللي بالينا بيها دي! !

- بالينا ؟

- احنا قدرنا واحد يا شريف...

***

كنت دومًا أحب أنا أفاجئها، أعطي لها البعض وأوفر البعض الآخر لوقت آخر، الساحر الماهر لا يكشف عن حيله كلها، والزوج المحب لا يظهر لحبيبته كل ما أوتي من حب في نفس الوقت، الحب يجب أن يقسم على أعوام وذكريات عديدة...

كنت أظهر لها ألوانًا لم تُعرف بعد في مشتقات الألوان، كنت الزوج المحب المخلص الذي يعطي بلا تردد ويحب بلا خوف، كانت ريماس جوهرتي وتاجي الذي أرتديه دومًا كلما شعرت إنني مجرد نكرة... لا شيء دون وجودها...

- عارفة مين جاي يتغدي معانا بكرة؟

- مين؟

- حاتم نور

- دمك بقى خفيف أوي يا روحي

- والله يا بنتي حاتم نور جاي يتغدي معانا بكرة... أما نشوف هتعملي إيه للفنان...

***



حاتم نور أصبح هو أيضًا جزء من الأسبوع في حياتي، يأتي إلى العيادة في ساعات متأخرة من الليل حتى لا يراه أحد وهو يتردد على عيادة طبيب نفسي، يعاني هو من فكرة احتياجه للحب الحقيقي المجرد من أي شروط، المجرد من أي مقابل غير الحب، يحكي لي دائمًا عن صدماته العاطفية الكثيرة، يرى النساء جميعًا باحثات عن شهرة معه أو طامعات في بعض المال أو حتى فقط يريدون تمضية بعض الوقت الممتع ليس أكثر، و لكنه لا يريد إن يحيا تلك الحياة، لا يريد أن يكون هذا الفنان البوهيمي ذا السمعة السيئة.. فقط يريد أن... يحب...

***

وضع عم أباظة النسكافيه أمامي وناول كل من تيا ومريم كوبًا من الشيكولاتة الساخنة قبل أن يبتسم في هدوء ويغادر الغرفة...

- هو الدكتور النفسي ممكن يبقى مريض نفسي يا خالو؟

- الدكتور مش فوق المرض، هو يمكن بيقدر يعرف أحسن من الناس التانيين، بيبقى فاهم أكتر في التشخيص والأعراض، بس مفيش حد أقوى من المرض...

- طب شريف مثلًا، إيه اللي يخلي ظابط شاف حواديت وكوارث يمرض ويتعب بسبب اختفاء واحدة زي حنين؟ مش غريبة شوية؟

- لما بندي نفسنا فرصة ندخل جوه الإنسان أكتر، وقتها بس بنلاقي مبرر لكل حاجة، شريف مثلًا كان ليه حكاية هي في الواقع أصل كل شيء... حكاية البنت الوحيدة اللي حبها...

***

أسميهم "الأوائل"، الأشياء الأولى في حياتي والتي شكلت جزءًا لا يستهان به من شخصيتي وتكويني الحالي، أول نجاح أتذكره، أول ألم، أول حب وأول شعور بالندم...



أول محاولة مني لكي أشرح لها، ريماس، عن شعوري الدائم بالخوف من ترددها والقلق من فقدها...

أول شعور بالندم! كيف لإنسان مهما كانت حياته وشخصيته أن يمتلك القدرة على إيذاء هذا الملاك، تلك الوردة، اسمًا على مسمى... كيف لجشعي وطمعي أن يدفعاني لمحو البسمة من على شفتيها إلى الأبد...

***

- تعالي نشبه حبنا بقوالب التلج، جبل عالي وقوي صعب يهزه ريح أو زمن...

- التلج مسيره يسيح يا يونس...

- دا مترتب على كمية التلج... الطاقة بتنتهي من الأشياء مع مرور الزمن، كله مترتب على حجم وثبات وقوة الطاقة دي يا ريماس

***

تيا تسأل ومريم تدون، وجودهم الأسبوعي يجلعني أشعر ببعض التغيير في حياتي، هم الهروب من رتابة الأسبوع، وجودهم أحيانًا يغنني عن هروبي الدائم إلى الإسكندرية، ولكن بعد هذه الجلسة أردت بالفعل الابتعاد ولو لساعات بسيطة، أكون فيها معي، أواسيني وأتحدث معي.... كثيرًا...

- احكي لي شوية عن مرض الذهان، تقريبًا دا أكتر مرض نفسي شدني وحاسة إني نفسي أعرف أكتر عنه...

- الذهان هو الشيزوفرنيا أو انفصام الشخصية، هو مرض مرعب في الحقيقة وللأسف لما بيعملوه فيلم سينما أو مسلسل بيبان بشكل ساخر أو سطحي شوية، لكن في الواقع المرض دا خطورته مخيفة... المرض بيخليك تشوف وتحس حاجات كتير وهمية، عالم خاص جوه دماغك، الذهان بيفصلك عن الحياة اللي إنت عايشها تمامًا، هلاوس سمعية وبصرية، خطورة المرض كان في إن أسبابه كتير فالتشخيص بيبقى صعب ومحتاج دراسة



شخصية شبه دراسة الشخصية اللي بيعملها الممثلين وهما بيحضروا دور جديد ليهم، الذهان أسبابه ممكن تبقى طبيعية ناتجة عن مشاكل في النوم مثلًا أو اضطرابات في الأحلام وكوابيس متكررة، ممكن تبقى نتيجة إن حد قريب منك يموت، ممكن يبقى نتيجة أذى اتعرض له المريض سواء جسدي أو جنسي أو نفسي، الذهان كمان ممكن ييجي من أنواع الإدمان المختلفة، أما أعراض الذهان بقى لحدث ولا حرج، يعني المريض ممكن يبقى عنده عرض من دول ويمكن أكتر ويمكن كمان يبقى عنده كل الأعراض دي، اضطرابات وتناقض في التفكير، اضطرابات في المزاج، صعوبة في التركيز، اضطرابات في الذاكرة والنوم والشهية، الاكتئاب، تغييرات في السلوك، الميل إلى العزلة، اضطرابات في التركيز، أفكار وهمية، الشعور بالاضطهاد، الهلوسات البصرية والسمعية، فقدان الاتصال مع الواقع...

- دا أنا على كدا مريضة ذهان عن جدارة

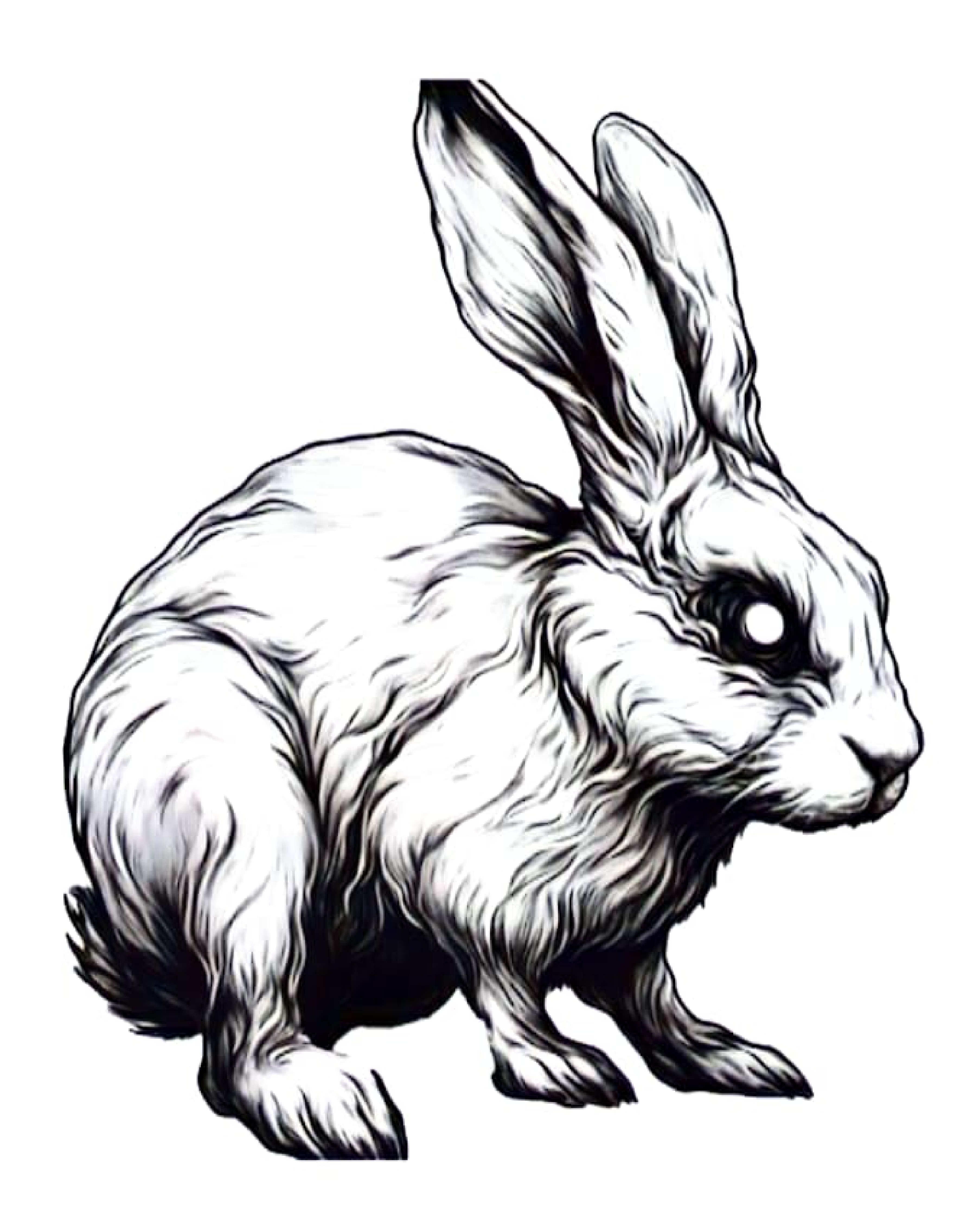
- مش كل واحد زعلان وحياته ملخبطة يبقى مريض ذهان يا تيا، صدقيني الموضوع أكبر من كدا بكتير

***



الفصل السابع

لوحة ما لفينسنت





أتأمل تلك اللوحات التي تزين غرفة الكشف في العيادة، أحب الفن والرسم بشكل عام، ولكن دوما تستوقفني لوحة مقلدة لفان جوخ، لوحة "حقل الذرة والغربان"، أرى نفسي داخل اللوحة في كل مرة، لوحة ترمز إلى السوداوية والكآبة التي مر بها في أيامه الأخيرة أو ربما في حياته كلها، أتمنى لو كنت طبيبه أو كان طبيبي، الغربان في اللوحة ترمز إلى الموت الذي ينقضّ على الحقل دون إرادته، الحقل والزرع يموج بالحياة في مناطق معينة، أرى الحياة في اللون الأخضر دائمًا وأتمنى أن أعيش في بيت ريفي بسيط يحيطه الخضار والأمل، وفي مناطق أخرى اليبوسة والموت متمثلة في اللون الأصفر، في الواقع هي لوحة متشائمة، ومع ذلك هنالك بصيص أمل من خلال رسمه هذا الطريق في منتصف اللوحة المفتوح إلى ما لا نهاية. هذه اللوحة تفرض نوعًا من توجس لوني وإيقاعي يعكس تشاؤم ڤان كوخ ذاته من الحياة، وتعبر عن إحساسه بالوحدة ربما أو التوهة؛ ففي كل ضربة فرشاة أو لون يعبر عن إصراره على يأسه وعبثية الوجود وعلى التمسك بالانتحار معبرًا عنه بذلك الطريق الأحمر الممزوج بأحمر متعرج يمتد حتى يتلاشى في العمق البعيد وكأنه تعبير رمزي لحياة الإنسان حيث تتكامل بمرور الزمن ثم تتلاشى رويدا رويدا.

لكنه لا يشكل منظورًا أو أفقًا ما في عمق اللوحة، وإنما هنالك التحام بين سنابل القمح الصفراء النارية بالسماء الزرقاء الأخاذة القاتمة التي تنذر بسر ما، هي ألوان متنافرة تقطعها حركة غربان سوداء في حالة هجوم على حقل الحنطة وكأنها رسل الموت.. وهذه الحركة العنيفة تنسجم مع حركة سنابل القمح التي منحتها الفرشاة، وبالتأكيد فإن هذا هو تعبير عن إحساسه بالقسوة والعنف الذين مورسا ضده.

ولكن هنالك إحساس بكلية الموضوع وهذا يعني كلية الوجود ودائرية الكون؛ ففي هذه اللوحة لا يمكن الفصل بين الجزء والكل، القرب والتنافر، الألفة والوحشية، النار المتوحشة وهارمونية الحركة. لقد رغب فان جوخ في هذه اللوحة توديع عالمنا بصفعة تحمل في طياتها الحزن والألم، وربما بعض الأمل الزائف، وأن يرينا دروب حياتنا المليئة بالأسى والتي تتلاشى



في أفق غامض لا نرى نهايته بيسر...

- يمكن لو رميت اللوحة دي أرتاح شوية... اللوحة دي ليها سحر غريب

- حنين عامله زي اللوحة دي يا يونس، وجودها مخيف بس غيابها كمان مخيف...

- ساعات لما بتحكي لي عنها، بحسك بتحكي عن حد كنت فعلًا تعرفه يا شريف

- أنا أول مرة أبقى كدا...

- شريف، إنت عمرك حبيت؟

- مرة واحدة، بس ما كملناش...

- في يوم حكيت لي عن زيتون، لما رجع يظهر لك تاني، لما قال لك إنك لازم تنتقم من اللي خانتك... هي دي اللي حبيتها؟

- ممكن أمشي؟

- طبعًا ممكن، بس يا ريت الجلسة اللي جاية تحاول تحكي لي أكتر، عايزين نطلع حنين من جواك ونرجعك شغلك تاني.

- تفتكر ينفع؟ تفتكر ممكن أرجع تاني زي ما كنت زمان؟

- أكيد... أكيد يا شريف

***

ريماس، حبيبتي الأولى والأخيرة، أبيات القصائد، ألوان الصباح المشرقة وسكينتي وهدوئي وسعادتي، كل شيء معها كامل إلا الحديث، دومًا أنا أحكي ولا تنصت، أتحدث ولا تفهم، في بعض الأحيان أراها تحتاج إلى كلماتي وحبي، وأنا لم أكن يومًا بخيلًا معها بأي شيء، حتى وإن كنت أخاف من كلمات تقال ولا تحس، أو كلمات تقال وتنسى...



- اوصفني يا يونس

- دا جو بتوصفني بتكسفني بتاع أنغام؟

- هههههه، بتكلم بجد... اوصفني بجد

- طيب، أنا عمري ما اتخيلت إني يكون ليا زي الناس حبيبة، سميه خوف أو سميه هروب أو حتى تعالي، نسميه إني معقد من الحواديت اللي ياما وياما سمعت عنها من ناس أعرفهم أو ناس جاية تشتكي وتحكي عن أوجاعهم، انتي الحب اللي ابتدي بنفجال قهوة، ورغم إني زمان ماكنتش عارف أنا ماشي وطريقي موديني على فين، لقيت نفسي بعد شوية وقت بامشي لك، يطول الوقت ويزيد التعب وبرضه بمشي لك، وكأنك كان معاكي مفتاحي من قبل ما أقابلك حتى، بحكي لك اللي عمره ما اتحكى لحد، بقلع بدلة شيطاني وببقى عاشق بيعرف لأول مرة أهمية إنسانيته، معاكي ببقى زي بير عميق مليان مياه، كل ما هتتعبي شوية شوية فيه ومعاه كل ما هيديكي خير وحياة، انتي الشمس في الشتا والبرد في الصيف، انتي الربيع اللي هو يعني فصلي المفضل، انتي الفضفضة وراحة البال، وانتي برضه الجنون، حبيبة قبل كل شيء، و أم وصاحبة ووطن، بحب روحك... يعني لما تكبري ويتغير شكلك وتفاصيلك، هعشقك بعدد السنين اللي عيشتها معاكي والسنين اللي عيشتها بتمناكي....

- ممكن أحضنك؟

***

كانت تقى شابة في النصف الثاني من العقد الثاني، تشبه إلى حد كبير حنين، و رغم أن شريف لم يرَ إلا صورة واحدة فقط لها، لكنه أدرك على الفور التشابه الكبير بين الفتاتين، تقى كما أخبرته يومها إنها أخت حنين الغير شقيقة، هما أختان من الأم نفسها فقط ليس إلا، وإنها تحاول أن تتواصل مع حنين منذ فترة، لكنها لا تستطيع الوصول إليها على الإطلاق، أخبرته عن حياة حنين البسيطة والغامضة بعض الشيء، و هي التي لم تكن تفعل



أي شيء سوى الرسم في الفيوم أو مشاهدة الأفلام...

- حنين تقريبًا ملهاش حياة، أو على الأقل دلوقتي ملهاش حياة

- احكي لي أكتر عن حنين يا أستاذة تقى

- حنين أختي الصغيرة، أمي اتجوزت والد حنين بعد وفاة والدي بسبع سنين تقريبًا، ولما أمي ووالدها اتوفوا بعدها بعشر سنين في حادثة بقيت أنا اللي بربي حنين، هي إنسانة خجولة وهادية دايمًا، و هي اللي قررت إنها تعيش لوحدها بعد ما خلصت جامعة، في الأول كانت دايمًا عايزة تخرج وتنزل بس بعد جوازها بفترة اتغيرت ودبلت، و عاشت في عالم تاني... رحت أبلغ عن اختفائها وعرفت إن في حد أصلًا بلغ وإن حضرتك اللي ماسك موضوع حنين...

- طب أقدر أقابل جوزها؟

- الله يرحمه، اتوفى من فترة...

- البقاء لله... ربنا يصبركم وترجع لكم بالسلامة...

***

كانت الجلسات الأسبوعية تقسم إلى جزئين، الجزء الأول وهو حضور تيا قبل مريم بساعة للحديث عن كل ما يدور في نفسها ومساعدتها في تجاوز أزمة الأخطبوط هادي، والجزء الثاني وهو حكي الأمراض ومساعدتهم في مشروعهم الذي أصبح جزءًا مهمًا مما أفعل...

شأني شأن أليس، المختنق من الحياة والروتين، أجلس في حديقتي أو في مكتبي، أعيش كوابيسي اليومية في صحوي، أتمنى أن يحدث أي شيء يغير مجرى أحداث يومي الرتيب، أي شيء حتى وإن كان أرنبًا أبيضًا يحمل في يده ساعة، أتبعه كالمجذوب لعالم آخر...

- كنتي بتحبي زمان تتفرجي على فيلم أليس في بلاد العجائب يا مريم



- والله يا خالو ولحد دلوقتي كمان

- طب تعرفي بقى إن فيه مرض اسمه متلازمة أليس في بلاد العجائب؟ أيوه ما تستغربوش، هي حالة مرضية عجيبة، بتعمل على تشوش وارتباك المرضى، المصاب بالمرض بيشوف الأشياء من حوله بأحجام غير حقيقية، يعني ممكن يشوف الأشياء الصغيرة عملاقة، أو العكس.. بيبقى عنده تشويش في الأحجام، العجيب إن المعاناة من الأزمة دي مش بتحصل من واقع مشكلة ما في العين أو البصر، أو حتى نتيجة ضلالات أو ما شابهها، ولكنها تنتج عن تغيرات في كيفية قيام العقل باستيعاب البيئة المحيطة، يعني مش العين بس اللي بتتأثر بالمرض دا، حواس تانية زي اللمس والسمع، علمًا بإنه أحيانًا ما يفقد المريض بمتلازمة أليس في بلاد العجائب القدرة على الشعور بالزمن، فيشعر بمرور الوقت بصورة أسرع أو أبطأ من الحقيقة...

- خالو إنت مش بتشتغلني... صح؟

***

ظلت ريماس غير مصدقة ما أخبرتها بشأن حاتم نور، تراني مخبولًا، متسائلة "حاتم نور هييجي يتغدى معانا عشان سواد عيوننا مثلًا؟"، تأنقت رغم كل شيء، كانت تشبه سيدات القرن الماضي في أناقتهم في هذا الفستان الأسود الجميل، تعرف إن أحدًا قادمًا إلينا، لكنها متأكدة أنه ليس حاتم نور، الممثل المفضل لديها، في تمام الرابعة رن جرس الباب وذهبت هي لتفتح الباب، كان المشهد مضحكًا حقًا بالنسبة لي، زوجتي الجميلة تفتح باب شقتنا فتجد أمامها حاتم نور بالفعل، يبتسم لها ويقدم لها الورود وهي فاغرة فاهها في بلاهة وعدم تصديق...

***

- مساء الخير.. أكيد حضرتك مدام ريماس

- يو... يونس! ! ... حا... حاتم نور! !



تتشابه كثيرًا مع الأطفال، تتلعثم إن شعرت بالتوتر أو الخجل، يحمر وجهها ويفضحها في كسوفها حتى إن حاولت إخفاء ذلك، نعم... كنت أعلم من حديثها الدائم إن حاتم نور أحد الفنانين المفضلين لها، خلال جلساته معي بالعيادة وحديثه المستمر عن وحدته وشعوره بعدم الرضا عمن حوله من أشخاص مزيفين شعرت تجاهه بالأسى، أردته إن يعتبرني صديقًا، يمكنه محادثتي أي وقت وعن أي شيء، أجعله ينسى أنني طبيبه النفسي وأننا أصدقاء حقيقيون، لذلك قررت في إحدى الأيام أن أدعوه لتناول الطعام معي أنا وريماس في البيت، "عصفورين بحجر واحد"، هذا ما قلته لنفسي حين ذاك، سأفاجئ ريماس بقدومه وأجعله يشعر إن لديه من يهتم لأمره كإنسان...

- تسلم إيد حضرتك يا مدام، أنا بقالي كتير ما أكلتش أكل حلو كدا

- بجد؟... شكرًا...

قالتها ريماس على استحياء وهي تنظر نحوي كأنها تريد مني أن أنجدها من كسوفها وارتباكها...

- لا ولسه بقى لما تجرب فطيرة التفاح اللي عملاها ريماس... احتمال تيجي تعيش معانا بعدها

- شكرًا على كل حاجة بجد... يونس فضي نفسك إنت والمدام الخميس اللي جاي

- هتيجي تتغدى عندنا تاني؟

سألته وأنا أمازحه وضحك هو وأجابني

- لا أنا مش عايز يطلع لي كرش من الأكل الحلو دا... عازمكم على عرض مسرحيتي الجديدة

- أكيد هنيجي يا حاتم، إنت عارف إن ريماس فنانة؟ خلي بالك يعني مش إنت بس اللي فنان على الترابيزة دي



***



عزيزي ثيو،

لماذا نحب؟ لماذا نربط أرواحنا وقلوبنا وسعادتنا بأشخاص غير ثابتون، حتى مشاعرهم غير ثابتة، وجودهم معنا في حياتنا دومًا مقترن بشيء، وفور إن ينتهي هذا الشيء، تراهم يبعدون ويختفون من حياتنا رويدًا رويدًا، مثلهم مثل الضباب، يحيطك من كل جانب، يأسرك بياضه، يتخلل حواسك ويصيبك بالعمى، تصبح جزءًا منه ويصبح جزءًا منك، وفجأة يختفي، يتركك في منتصف الطريق، تائهًا وعاريًا، يأخذ بياضه وبرودته لمكان جديدٍ به أشخاص آخرون...

إذًا، حقًا لماذا نحب؟ عن ماذا نبحث؟ ولماذا حتى نبحث عنه؟ لماذا يدق القلب؟ لماذا نربط أنفسنا بأشخاص مؤقتين؟ لماذا لا نتعايش مثل الشجر؟ ثابتين في مكانٍ واحد طوال حياتنا، لا نعرف غير جذورنا، لا نلتحم أو نتعلق بجذور أخرى، أو لماذا لا نكون مثل الحيوانات؟ نعيش بالأفعال الغريزية فقط، نمارس الجنس ونأكل وننام، لماذا نحب يا ثيو؟ لماذا نقابل إنسانًا ونعشقها ثم نتركها أو تتركنا، فنعيش بأرواح مشوهة ومشتتة لا تشعر ولا يدخلها السعادة مرة أخرى؟ أخبرني لماذا؟ لماذا يرانا البعض كفراشات؟ أو نراهم نحن كذلك، نعشقهم لدرجة تجعلنا نضعهم في برطمان زجاجي! ! نراهم يختنقون في هذا البرطمان ونظن نحن أنهم يرقصون...

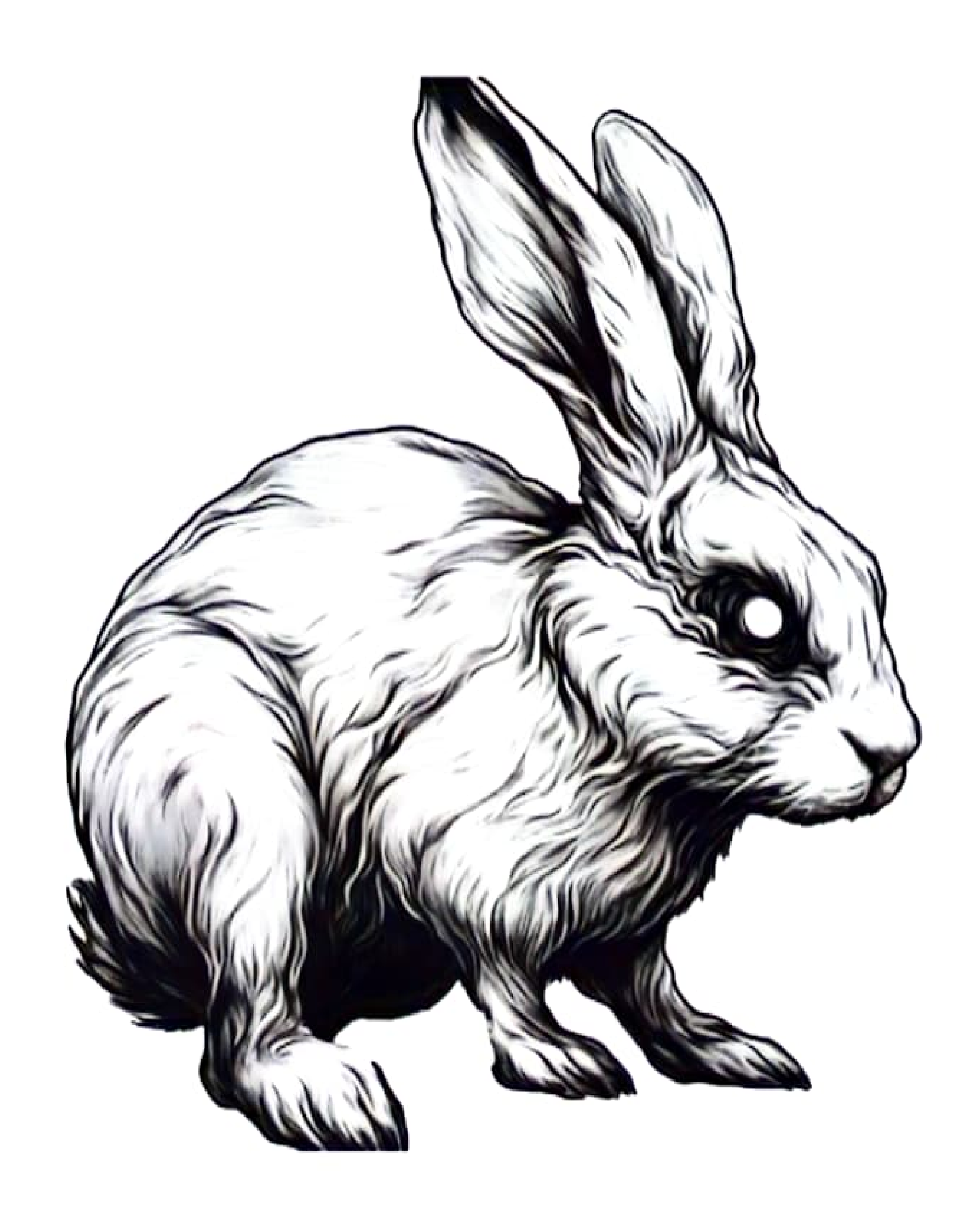
عزيزي ثيو، إن رأيتها فأخبرها كم أشتاق إليها، أخبرها إن ملابسي تشتاق إلى رائحتها، أخبرها أن أيامي تشتاق إلى ابتسامتها، أخبرها أن عمري يضيع يومًا بعد يوم بلا أدنى أهمية بفعل غيابها...

فنسنت



الفصل الثامن

لعنة لا شفاء منها





"يا حلمي اللي متأجل وانا هاموت وأحلمك، يا عمري اللي ناقص عمر نفسي أكملك"

- ساعات بحسك شايفني زي الفراشة الملونة...

- انتي أجمل من الفراش ومن الملايكة حتى...

- صدقني دا مش مدح... الناس في العادي لما بيشوفوا فراشة ملونة، فيحطوها جوه برطمان إزاز، يسلبوا من الفراشة دي فرحتها وحياتها وحريتها ويخلوها ملكية خاصة، جوه الفاترينة بتاعتهم... و يخرموا في غطا البرطمان كام خرم، عشان يعني يبقى اسمهم بيدخلوا لها هوا وفارق معاهم إنها تعيش، بس الفراش ما اتخلقش عشان يعيش جوه برطمان يا شريف...

- مش كل الحاجات الملونة حلوة.. والفراش لو من غير جناحات ولا ألوان زي ألوانه ماحدش هيفكر يحطه في برطمان إزاز زي ما انتي بتقولي...

- و هي الفراشة لازم تتحط في برطمان؟ ما ينفعش تتساب للناس يشوفوها من بعيد؟ أو حتى من قريب من غير ما تتسجن؟ ولا انت حياتك ما تنفعش من غير كلبشات؟

- ربنا يهديكي وصدقيني أنا هعمل نفسي ما سمعتش كلامك دا كله!



عزيزي ثيو،

ماذا تعرف عن المصحات النفسية؟ هل زرت أحدها يومًا؟ هل استلقيت على أرضها المليئة بالبرودة يومًا؟ هل تناولت طعام المصحات النفسية يومًا؟ ماذا تعرف عن جلسات الكهرباء؟ هل وضعت يومًا مسارًا كهربائي على رأسك؟ هل تلقيت تيارًا كهربائيًا مركزًا بدون تخدير وبعدها أصبت بالتشوش أو فقدان مؤقت للذاكرة؟

عزيزي ثيو، هل صحوت من النوم مرة ونظرت إلى نفسك في المرآة ولم تستطع التعرف على نفسك؟ أعتقد إن كل إجاباتك على كل ما قلت أنا مسبقًا سيكون لا! ! بالقطع لا! ! وأنت الذي لم تعش ما عشت أنا يومًا من الأيام يا أخي، هل تعلم ما هي الخيانة؟ هل جربتها؟ هل قابلت إنسانًا وأعطيته كل ما تمتلك بداخلك من مشاعر وفي النهاية... خانك؟ أنت أكثر حظًا مني يا أخي... أحسدك على هذا من كل قلبي...

فنسنت



- احكي لي عن اليوم الأخير.

- و ليه ما تسميهوش اليوم الأول؟

- عشان كونه اليوم الأول يا شريف دا في حد ذاته هيديك أمل ويمكن شعور مخيف يفضل يطاردك زي ما بيحصل دلوقتي، أما لما تقتنع من جواك إنه اليوم الأخير دا بيقطع جوه عقلك اللا واعي كل الروابط اللي تخليك حاسس بالندم أو تأنيب الضمير

- تخيل إني فضلت بشتغل على القضية دي شهور يا يونس... و في النهاية ألاقيها بس جثة... كان شكلها حزين...

- انت عمرك شفت جثة بتضحك يا شريف باشا؟

- مش دا قصدي... بس في جثث مرعوبة وجثث مرتاحة وجثث في أوقات تانية بتبقى ملعونة... هي كانت... كانت حزينة

- انت محتاج تكمل حياتك يا شريف... إنت خسرت شغلك... بلاش كمان تخسر حياتك

- زيتون شايف إني المفروض أفضل حاسس بالندم...

- زيتون زيه زي حنين يا شريف... الاتنين ما ينفعوش يفضلوا جواك...

- لو الاتنين مشيوا... أنا هبقى لوحدي يا يونس...

- مش هتبقى لوحدك... أنا هبقى دايمًا معاك

***

"لقد كدت أنسى طعم المخاوف. مر بي زمن كانت حواسي فيه تجمد إن أنا سمعت زعقة في الليل، وكانت فروة رأسي عند سماعي قصة مرعبة تثار وتتحرك كأن فيها حياة. لقد أطعمت ألوانا من الرعب حتى شبعت والهول الذي تعودته أفكاري القاتلة لن يستطيع أن يجفلني بعد، مرة واحدة"



كان العرض رائعًا رغم أنني لم أكن من محبي شكسبير في الحقيقة، أراه أقتم من اللازم وأراه يعيش الألم في كل شيء، أكره السواد حتى وإن كنت أعيشه يوميًا، أكره أن أظل حبيسًا للوحشة والألم، كنت قد قرأت مكبث منذ أعوام طويلة، و لكن في رؤيتي لها مجسدة أمامي على المسرح، فهذا شيء آخر...

ريماس، كانت تشاهد العرض وعيناها تلمعان من السعادة والانبهار، تذكرني بتلك الطفلة التي رأيتها يومًا ما في حديقة الحيوانات، كانت تشاهد القرود الصغيرة وهي تقشر الفواكه وتأكلها في براعة بشرية مدهشة، صفقت هي في سعادة، وكم تشبهها ريماس الآن...

- مبسوطة؟

- أوي! ! إحنا ازاي عمرنا ما رحنا مسرحية قبل كدا مع بعض؟

- ما انتي عرفاني بقى، غاوي مزيكا أكتر... بس حاضر... نروح مسرحيات كتير بعد كدا

احتضنت كتفي بامتنان ومالت برأسها علي وهي ما زالت مندمجة في العرض، كم أعشق رؤيتها سعيدة وكم أعشق حبي في إسعادها...

***

ماذا يحدث فيتغير كل شيء؟ ما هي تحديدًا القشة التي تقسم ظهر البعير؟ وأي بعير أنا وأي قشة قادرة على الإطاحة بحبنا كانت؟ أجلس في بقعتي المفضلة على كوبري ستانلي بالإسكندرية، أشاهد تلك الفتاة الصغيرة والتي أراها كثيرًا عند مجيئي إلى هنا، تجلس هي ويلتف حولها العشرات من القطط، تطعمهم وتلعب معهم في سعادةٍ وحبٍ حقيقيين، كان معي سندوتشين كنت اشتريتهم من مطعمي المفضل "جيمي" ولسبب ما لم أعد أشعر بالجوع، وندهت عليها فأتت إليّ على استحياء...

- اسمك إيه؟



- ريتال

- اسمك حلو أوي يا ريتال... و القطط بتوعك شكلهم حلو أوي هما كمان...

- شكرًا يا عمو

- خدي الأكل دا عشانهم... و عشانك انتي كمان لو جعانة... أكل نضيف ما تخافيش

أخذت مني الطعام في خجل والابتسامة لا تفارق وجهها، رحلت هي ورحل الدفء الذي كان في المكان، أعود مرة أخرة إلى أفكاري وكوابيس صحوي التي لا تفارقني، هناك عدة أسباب لتعرض المرء للكوابيس المزعجة، ومن ذلك انخفاض سكر الدم خلال النوم، تغيير درجة حرارة الجسم، شرب الخمر والكحوليات، تناول بعض العقاقير مثل بعض مضادات الاكتئاب، أو أدوية القلب أو المضادات الحيوية أو مضادات الهيستامين، نتيجة للتوقف المفاجئ عن تناول أحد العقاقير كأقراص النوم مثلاً، أحد الأعراض الانسحاب للتوقف عن شرب الخمر والمخدرات، التعرض المستمر للضغوط النفسية والمشكلات العائلية والعاطفية، التفكير السلبي قبل النوم، قد يكون شكلاً من أشكال الأرق يصيب مرضى الاكتئاب، تناول الوجبات الدسمة قبل النوم مباشرة...

لماذا لم يذكروا إن من أسباب الكوابيس التي لا تنتهي؛ الشعور أن شيئًا ما ليس على ما يرام، الشعور أن هناك ما يحدث ولا أعرف عنه شيئًا... شعور هو خليط من الشك والخوف المستمر...

***

- اعمل حسابك إنت ومدام ريماس معزومين عندي يوم الجمعة في بيتي في الفيوم

- ملهاش لزوم يا حاتم... مش عايزين نتعبك ولا أنت بترد لنا العزومة



والجو البلدي دا

- والله أبدًا... بس أنا فعلًا حابب إنكم تيجوا... مش احنا أصحاب

- طبعًا يا حاتم... و أكتر من أصحاب كمان...

***

يجب على أن أعترف بجهلي، كل معلوماتي المغلوطة عن الفيوم أنها فقط أراضي زراعية فقيرة، لم أكن أعرف أنني سأرى كل هذا الجمال والسحر، أما عن بيت حاتم نور، فحدث ولا حرج، هو قصر، ليس بيتًا عاديًا...

كان استقباله لنا حافلا، يظهر الكرم والود في كل تفاصيله، القصر يحيط به من الخلف فدادين زراعية كثيرة، أما نافذته الأمامية فهي تطل على البحيرة الكبيرة، تشعر وأنت داخل القصر أنك تسبح في وسط البحيرة، لا أستطيع فعلًا أن أميز إنْ كانت المياه فضية حقًّا أم هذا انعكاس السماء، لرتدى هو جلبابًا أسود اللون وأعطاني واحدًا كنوع من أنواع الكرم وواجب الضيافة، ابتسمت له ووضعت الجلباب إلى جانبي، كان قد أعد لنا وجبة من المأكولات البحرية الشهية والتي أخبرني أنه يختار محتوياتها بنفسه

- سيبك من إني مشهور وكل الكلام دا، لما تيجي تاكل سمك لازم تختاره بنفسك

- أنا بقى على قد حبي لإسكندرية عمري ما كنت بفهم في السمك

- أنا هعلمك يا دكتور.. ألف هنا

***

- خالو

- ما قلت لك قولي لي يا يونس... خالو دي بتحسسني إني عندي ٧٠ سنة

- كنزي وحاتم نور وشريف، مين بالنسبة لك الحالة الأصعب وهل اتعالجوا في الآخر؟

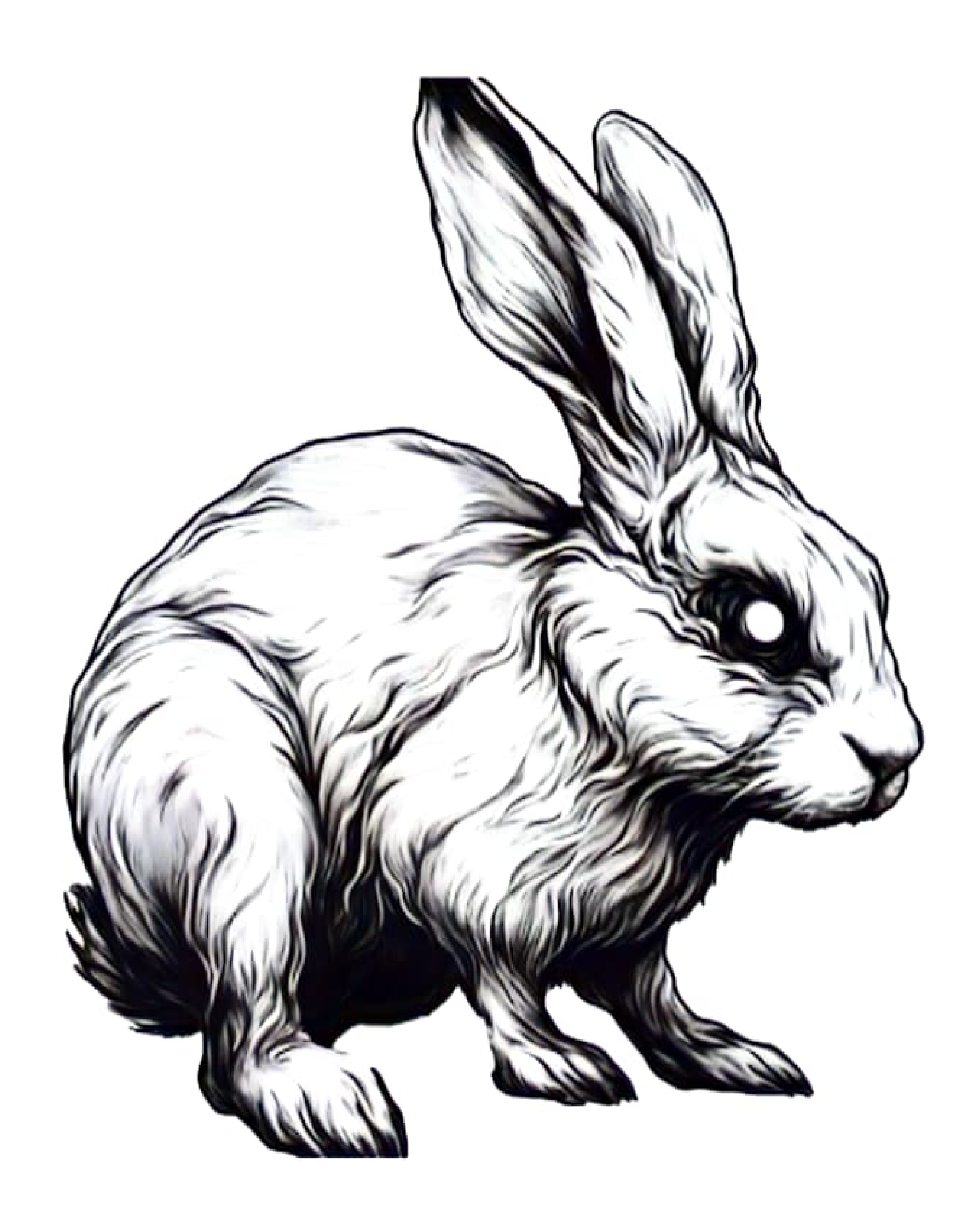


- كل حالة صعبة عشان الأسباب اللي بتخليها صعبة، بمعنى إن كل حالة صعبة بتركيبتها الخاصة... صعوبة كنزي في إنها من الأساس مش مقتنعة إن عندها أي مشكلة، هي دايمًا عندها مبرر للخيانة وكانت بتيجي العيادة عشان عايزة حد تحكي له من غير ما يحكم عليها وعلى تصرفاتها، حاتم صعوبته كانت في البساطة، هو واحد بيدور على الحب، و الحرمان من المشاعر مأثر جدًا على حياته، ببساطة هو محتاج يلاقي الحب عشان يبقى كويس بس على قد ما الجملة تبان سهلة على قد ما هي صعبة جدًا... شريف صعوبته في الدوامة اللي هو جواها، شريف عامل زي اللي واقع في متاهة... كل ما يحس إنه خلاص هيخرج منها يلاقي نفسه بيبدأ من الصفر...



الفصل التاسع

هلاوس حقيقية





ما زال شريف لا يريد الخروج من تلك الشرنقة، بعض المرضى ينفصلون عن الواقع تمامًا بعد الصدمة، ينتهي كل شيء ويظلون داخل تلك الدائرة المظلمة ولا يملكون رفاهية الخروج منها...

- احكي لي عن البدايات يا شريف... احكي لي عنها...

- لأول مرة أحس إني أنا المتهم... و قاعد في تحقيق كمان... إحساس غريب يا دكتور

- انت قعدت سنين تسمع حواديت... مفيش مانع لو حكيت إنت حكايتك المرة دي على سبيل التغيير...

- صدقني أنا حكايتي مش هتبقى مسلية ليك تمامًا، أنا ما عشتش حكاية تشبه حواديت قبل النوم بتاعت زمان يا دكتور

- كل حدوتة وليها بطلها وليها تفاصيلها الخاصة... وبعدين بالعكس... أنا اللي سمعته يخليني عايز أسمع منك... أكيد حكايتك هيبقى ليها شكل تاني يا شريف...

- انت اللي طلبت... عمومًا... أنا حكايتي بدأت بفنجان قهوة شبه اللي قدامك دا...

أشار إلى فنجاني الذي قارب على الانتهاء، قلب الفنجان بين يده مثل قارئ الفنجان، ثم وضعه في مكانه وأنا أبتسم له في حزن...

***

تنهد طويلًا وبدأ في الحكي، وأنا من ورائه أكتب ما يقول، و أصيغه ككقصة...

حكى شريف وقال أنه:

كان في نهار أتذكره جيدًا ببرودته الجميلة، تلك البرودة التي نحتاجها في أوقات كثيرة إن كانت الشمس حارقة، كنت قد حصلت على الماجستير



في الأمراض العصبية والنفسية، كانت تلك الندوة هي التاسعة لي، على ما أتذكر، كنت أتحدث عن الصحة النفسية للمسجون وكيفية تأهيله للمجتمع عند خروجه، في الواقع كنت أعشق فعلًا علم النفس وأهوى دراسته ومعرفة المزيد عنه، حتى خلال أعوام دراستي في الكلية، كانت النفس البشرية هي أكثر ما يستهويني، أرى أن العلاج النفسي هو أصعب وأكثر الأمراض تعقيدا عندما تحاول علاجها أو دخول عالمها...

كانت ملفتة للنظر حقًا، تدفع رقبتك فتلتف صوبها، و تدفع قلبك فينبض نبضًا مضاعفًا من أجلها، اقتربت هي ولم أمانع اقترابها، دعتني لشرب القهوة ولم أبعدها مثلما أفعل مع باقي البشر، شيئًا ما بها يجعلني لا أتردد ولو للحظة لأدخلها عالمي الخاص، كان للجلوس معها أثر سحري على روحي، و إن كنت أصنف الناس في حياتي إلى نوعين: أشخاص يحبهم القلب وأشخاص يحبهم العقل، كانت هي من يحبها الروح، تقتحمني، تراني عاريًا لا أبالي إن كشفت عوراتي أمامها، أراني أمشي خلفها بلا تردد، حتى الحذر قد تبخر، أيام وأسابيع نتواعد وأذوب في تفاصيلها...

- أنا عندي شغل في الصعيد... مش هرجع قبل سنة

- هاجي معاك

- بلاش قرارات رومانسية سريعة... الحاجات دي بييجي وراها ندم كبير

- رجلي على رجلك يا حضرة الظابط... مش هسيبك

- انتي بجد كنزي اللي طلعت بيه من الدنيا

وماذا قد يريد الإنسان أكثر من ذلك؟ حبيبة ستصبح زوجة، إنسان متفهمة ومقدرة لطبيعة عملي، هي لا تريد سوى سعادتي، تراني شخصًا مبهرًا قادرًا على كل شيء... و لكن إلى متى يستمر الإنسان مبهورًا؟

متي يسيح الثلج يا ريماس؟ أتذكرين تلك الجملة، و هل تعلم حبيبة شريف



تلك الجملة؟

***

في الواقع، لم يكن الأمر بهذا السوء! وقعت في حب أسوان منذ اللحظة الأولى، الحرارة شديدة ولكني لا أتصبب عرقًا، الهواء هناك لم يلوث بعد والأشخاص ما زالوا أنقياء مثل ماء النيل، الشقة التي أعطوني إياها تطل على كورنيش النيل، أستطيع أن أرى كل هذا الجمال من شرفة غرفتي، ربما بدت عليها السعادة أيضًا وإنها تشاركني نفس شعوري، شعرت بالامتنان وطلبت منها أن تغير ملابسها لنخرج ونتناول الطعام...

لا يجب أن تكون رحلتك إلى مطعم الدوكة للأكل فقط، بل جهز نفسك لرحلة متكاملة وسط الطبيعة، يحيط بك النيل والجبال والآثار الفرعونية ورحلة نهرية أيضًا. المطعم يقع بجزيرة الفنتين المليئة بالآثار الفرعونية والنوبية، والوصول إلى هناك من خلال رحلة نهرية.

- مبسوطة؟

- بقالي سنين ما فرحتش كدا

بمجرد أن تدخل المطعم ستشعر بالكثير من الألفة والارتياح، فهو يعتمد على الديكور النوبي البسيط، اخترنا طاولة مجاورة للمنظر الخارجي للنيل، أكلنا وضحكنا كثيرًا، أنظر لها بحب ومن داخلي أقول لنفسي " قدامي كل سنين حياتي عشان أعرفك فيها"...

قررت أنه في أسبوعنا الأول بأسوان لن أرتبط بأي عمل كان، اتصلت بقائدي ووافق على طلبي متمنيًا لنا زواجًا سعيدًا، قررت أن لن أخذلها وأنني سأفعل كل شيء لأسعدها...

اتصلت بأحد زملائي من أيام الجامعة والذي يعيش في أسوان منذ أعوام كثيرة، يدعى هيثم، أخبرته عن زواجي وعن وجودي بأسوان؛ فأخبرني بأنه سيقيم لي ليلة نوبية أو حنة نوبية في النوبة كهدية زفاف لنا، لم أكن



متحمسًا في البداية ولكن للحق، كانت من أروع ليالي حياتي...

ارتديت في هذا اليوم جلبابًا أبيضًا أسوانيًا، فوقه سديري ذهبي اللون وطاقية أسوانية أو شبيكة كما يطلقون عليها، و ارتدت هي جلبابًا نوبيًا مرصعًا بالمشغولات اليدوية والورود الذهبية، كان الحب والسعادة حليفين في تلك الليلة، الوجوه سعيدة بحق، الناس مبتسمون ويغنون بصدق وبلا تكلف... و أنا في وسط كل ذلك لا أرى سوى عيون ريماس

"أيوه شمندورة من جنا... باري أنجس كريو من جنا

سجرى مالا واينا... ... مونت أنجلاه وانا"

- بعشق الأغنية دي... بس عمري ما فهمت معناها

- هيثم يقدر يفيدك أكتر مني في اللغة النوبي

- يا شمندورة، يا مركب يا صغيرة واقفة في وسط البحر، و حواليكي المراكب بتتدلع وترفرف، و ترفرف أكتر لما تكون جنبك...

- الله!!

ابتسمت كعادتي عندما أراها سعيدة ومبهورة، أقول في داخلي "قلبي اللي بيرفرف عشان بس انتي موجودة "

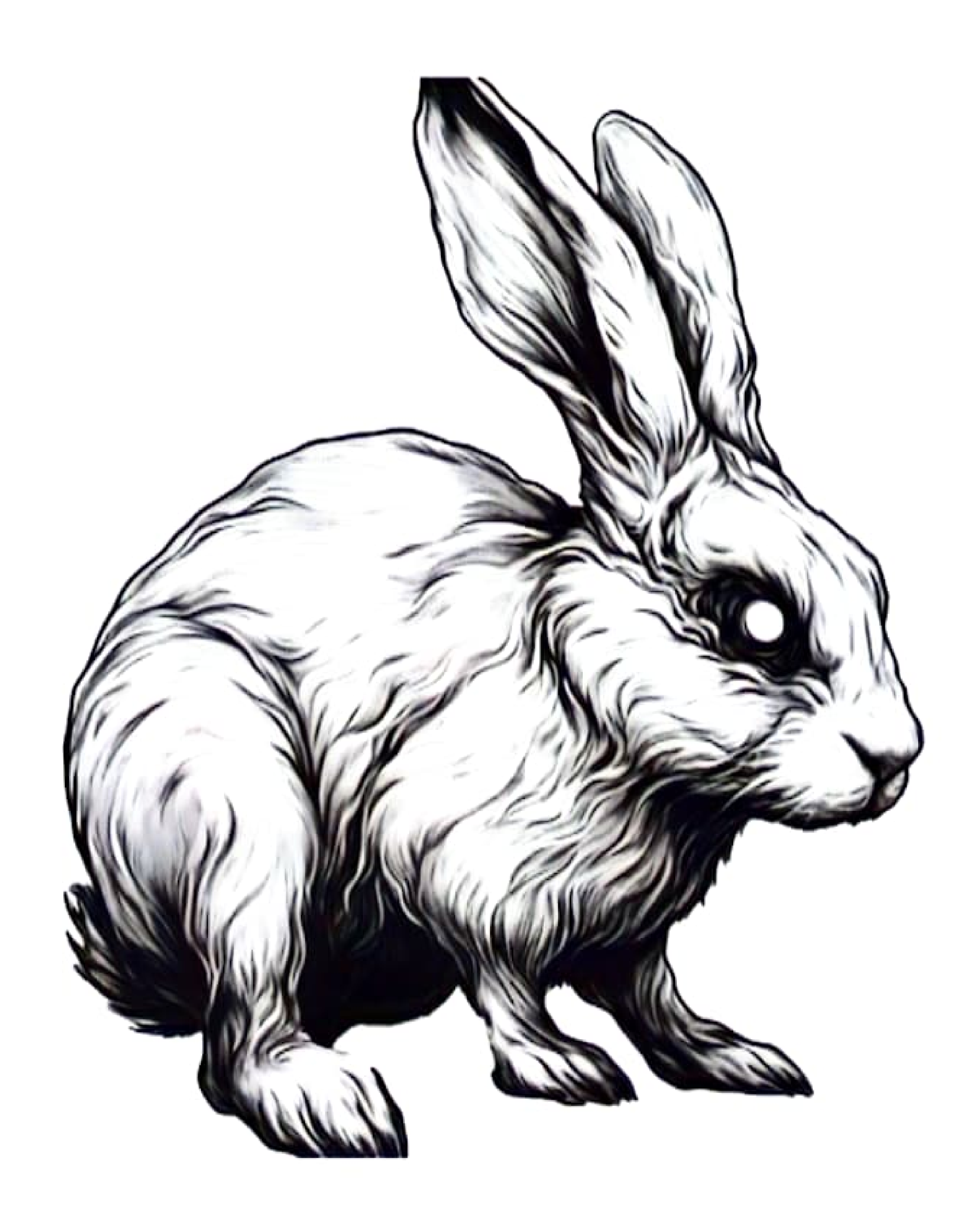
ضممتها إلى قلبي ومنير يغرد قائلًا:

"ع الشط استني رايحة فين، دا أنا ليكي بغني غنوتين، غنوة عن الآهة والحنين، وغنوة لعينيكي يا حنين"



الفصل العاشر

عصفورة وحيدة





- احكي لي عن عصفورة... لما قريت جواباتك ودفاترك لقيتك كاتب عنها كتير... وراسمها كمان

- عصفورة هي الحدوتة اللي ندمت إني ما عشتهاش... خدت جناحتها وطارت بعيد...

- فاكر أول مرة قابلتها؟

- أنا مش ناسي أي تفصيلة تخص عصفورة... تسمع عن قرية السماحة؟

السماحة قرية مصرية تعيش فيها النساء فقط وغير مسموح للرجال دخولها، يقطنها ما يقرب من الـ ٣٠٠ سيدة، ومن تفكر في الارتباط تطرد منها فورًا، منازل القرية متناهية الصغر، طلاؤها طوبي يميل بعض الشيء إلى الأحمر، كنا قرابة الغروب فزادت حمرة المنازل كأنها نيران متأججة، أمام كل منزل مصطبة إسمنتية كبيرة يجلس عليها أصحابها كل مساء...

قرية خصصتها الحكومة المصرية للنساء والسيدات الأرامل والمطلقات، حيث تتبع مدينة إدفو، وتبعد عن مدينة أسوان جنوب مصر بنحو ١٢٠ كيلومترًا، وتضم مناطق زراعية قامت الحكومة بتخصيصها لتلك النسوة كي يقمن بزراعتها وتربية الدواجن والماشية فيها ومن ثم توفير مصدر رزق لهن...

أول جريمة قتل تحدث في تلك القرية منذ نشأتها، سيدة قتلت أخرى بسبب شعورها أن الثانية تأتي برجال متنكرين في زي النساء يزورونها في بيتها، تلك كانت مهمتي الأولى في الصعيد، في الواقع كانت القضية بسيطة، القاتلة معترفة والشهود كثيرون، أكثر ما أثار انتباهي وقتها كانت تلك الفتاة العشرينية التي سحرتني بجمالها منذ اللحظة الأولى، هي ابنة السيدة القتيلة والآن هي لا تمتلك في الحياة أحدًا بعد وفاة والدها ومقتل أمها، كان الخوف والإرهاق ظاهرين عليها، تحاول التماسك أمام أعين السيدات الشامتات والكارهات، ولكن إلى متى تظل متماسكة؟ إلى متى تظل قوية ؟



- البقاء لله...

- شكرًا يا سعادة الباشا

- اسمك إيه؟

- عصفورة يا باشا... اسمي عصفورة

- ما تخافيش، حق أمك هيرجع لها

- حق أمي عند ربنا يا باشا...

أذهلتني الإجابة في الحقيقة، تلك الفتاة البسيطة والتي تعيش فعليًا في اللا مكان، والتي قد خسرت أمها وكل ما لديها منذ ساعات، الإيمان يعمر قلبها ويظهر الهدوء والسكينة في ملامحها...

أشفقت على عصفورة وحزن قلبي لرؤيتها حزينة تأبى إن تظهر حزنها لأحد، أخذتها معي لمكتبي وأحضرت لها طعامًا وبعض العصير، عدة ساعات مرت وهي في حالة ثبات وحزن، إلا أنني فعلت كل شيء لأخرجها من تلك الحالة، و في الواقع هي أيضًا شعرت أنني أفعل المستحيل لإسعادها، فقررت في بداية الليل أن تتبادل معي أطراف الحديث...

- حضرتك كويس يا باشا؟

تعجبت من سؤالها، و تعجبت أنها كانت الجملة الأولى التي تنطق بها منذ جلوسها أمامي، فابتسمت ابتسامة يشوبها بعض القلق وأجبتها:

- الحمد لله يا عصفورة... شكرًا على سؤالك

وجدتها تخرج من حقيبة ظهرها القماشية، بؤجة صغيرة تشبه التي يضعون داخلها الثعابين الصغيرة، أخرجت من تلك البؤجة بعض الودع وأصداف البحر، ابتسَمت لأول مرة منذ رؤيتها صباحًا وقربت يدها فوق مكتبي وسألت:

- تحب أضرب لك الودع يا باشا؟



فكرت للحظات قبل أن أجيبها، "خليني وراها للآخر"، هكذا قلت لنفسي، فابتسمتُ لها مرة أخرى، وهززت رأسي بالموافقة؛ فتهللت أساريرها وقربت الودع إلى فمي وطلبت مني أن أخبر الودع عن أمنياتي وأسراري، كل ما كنت أفكر فيه وقتها كان زوجتي، لجاريتها وهمست قائلًا "بحبك يا كل حاجة في حياتي"، بعدت رأسي إلى الخلف مرة أخرى ورمت هي الودع على مكتبي ونظرت له في تركيز شديد...

- الخيانة وجع... بس زيه زي القدر

- مين علمك ضرب الودع بقى يا عصفورة؟

- زمان أمي أخدتني فوق الجبل... هناك علموني ضرب الودع

- هما مين دول؟

- مش كل الحاجات لازم تتقال وتتعرف يا باشا...

كان أداؤها مفتعلًا بعض الشيء، لكنها كانت حقيقية رغم كل شيء، لم تظهر عليها أية أعراض كذب على الاطلاق، ابتسمتُ لها مجددًا وسألت:

- احكي لي عن أهلك يا عصفورة

- أمي طول عمرها هي والطين اخوات، ما عرفتش غير الطين والزرع... سعيدة كانت بتحب الزرع كأنه عيل من عيالها، لما تعوز تدور على سعيدة هتلاقيها دايمًا في الغيط... أبويا بقى مات وأنا لسه بنت ١٣... كان قرداتي، الريس محروس القرداتي... كان هو وشفيق كل يوم ينزلوا من الفجر ويرجعوا المغرب... كنا وقتها لسه عايشين في أسوان نفسها.

- شفيق مين؟

- شفيق القرد بتاع أبويا الله يرحمه... كنت تحس إن أبويا بيحب شفيق أكتر مني أنا وأمي، كانوا يسافروا الموالد ويقفوا على الكورنيش، أبويا يطبل ويلعب ع الرق وشفيق يتشقلب ويرقص زي الحاوي، وفي يوم عربية داست على شفيق موتته، بعدها بأسبوع أبويا مات... ما قدرش على فراقه..



- أنا فرحان فعلًا إني اتعرفت عليكي يا عصفورة، و حق أمك هيرجع لها وقريب أوي

أخرجت لها كارتًا يحمل رقميًا وناولته لها

- و دا الكارت بتاعي... سواء كنت في أسوان أو رجعت القاهرة... أنا دايمًا موجود

رأيتها تخلع خاتمها من يدها وتناولني إياه، كان حجرًا غريبًا لم أره من قبل في حياتي...

- خلي الخاتم دا معاك يا باشا... أنا ما اتعودتش ألاقي حد يخاف عليا... أمي كان عندها الطين وأبويا كان عنده شفيق...

- إيه الخاتم دا يا عصفورة؟

- دا فيروز يا باشا... خدته هدية من أمير عربي من كذا سنة عشان قريت له الودع وكلامي فرحه... الفيروز دا مفيد ليك أكتر مني... هيحمي قلبك وبصرك... خليه دايمًا معاك...

في الواقع، ما جذبني للخاتم لم يكن الحجر نفسه ولا شكله، انجذبت أكثر لهذا النقش الغريب أو الرسمة التي نقشت على الحجر، سألتها إن كانت تعلم معنى هذا النقش ولكنها أجابت بالنفي، شكرتها وارتديته في إصبعي وأنا ما زلت أتأمل تلك السمراء الساحرة...



عزيزي ثيو،

لقد أرهقتني الحياة، و الموت أيضًا مرهق... أصبحت أفضل تلك المنطقة الرمادية، أبحث عنها وصدقني حينما أقول لك إنني آجلًا أو عاجلًا سأعثر عليها، الواقع أصبح غير مرضٍ بالنسبة لي والثبات، أنا أكره الثبات... عشته وتجرعت مرارته، أنا الآن في رحلة البحث عني، عن نفسي وعن وجودي... أتمنى أن أراك قريبًا...

فنسنت



تراودني تلك الكوابيس كثيرًا، كابوس محدد يتكرر كثيرًا، أراها جالسة في المزرعة تلاعب الحيوانات، ترتدي فستانًا أزرقًا جميلًا، أنادي عليها كي تأتي وتجلس معي قليلًا

- كفاية لعب مع الحيوانات، هدومك بقى كلها طينة

- مش إنت اللي قلت يلا نعيش في مزرعة؟ اتعود بقى على الطينة والقرف دا كل يوم

- أنا اللي جيبته لنفسي أنا عارف

نادى عليها مرة أخرى، لكنها لا تجيب، ناديت مرارًا وتكرارًا ولا استجابة منها، أركض نحوها فأرى أشخاصًا يرتدون أقنعة لحيوانات أليفة يقومون بربطها من عنقها ويلقون بها في حفرة عميقة، أحاول أن أسحبها وأحاول أن أساعدها ولكن هيهات، لا أقوى على إخراجها ولا أقوى على إلقاء نفسي بجانبها...



عزيزي ثيو،

أهي أزمة إننا كرجال نغار من قلوبنا؟ نغار على من نحب، فيظنون أننا نرهقهم، يظنون أننا مشتتون نخاف أن نفقدهم وفي الحقيقة نحن نغار لأننا نعلم تمامًا ما نريد، ولذلك نغار على ما نريد، ثيو هي لم تفهم أنني كنت أعشقها، لم تفهم أنني أعطيتها كل شيء... هي لم تفهم أن غيرتي هي برهان عشقي لها وخوفي عليها... لم ولن أكون رجلًا متحررًا...

فنسنت



- بتشوف الخيانة ازاي يا شريف...

- الخيانة ببساطة هي خرق للعهد، أيًا كان نوع العهد دا، مش كل العهود بتحتاج ورقة وقلم يا دكتور... بتبقى حاجة أكبر من كدا بكتير... الخيانة إني أدي لك كل اللي جوايا وأديك الأمان، أجي أقولك إن مشاعري وقلبي دول من النهارده أصبحوا ملكك وأطلب منك تحافظ عليهم... و تيجي إنت بمنتهي الأنانية ترمي كل دا وتعتبره ولا حاجة، الخيانة إني أديك مسمى في حياتي يخليك فوق كل الأشخاص التانيين وتعتبر إن المسمى دا أمر واقع ملوش أي أهمية... هي دي الخيانة...

- و هي؟

- كنت فاكرها غير أي حد.. بس دايمًا بيطلعوا في الآخر كلهم شبه بعض..

- شريف إنت بيجي لك كوابيس كتير؟

- أنا كوابيسي كلها بتبقى قبل النوم يا دكتور... كوابيس الصحو أوحش بكتير من كوابيس النوم... خصوصًا لما تبقى مش عارف هتخلص إمتى...؟!

***

بدأ حب ريماس للفيوم يزيد يومًا بعد يوم، تطلب الذهاب إلى هناك كثيرًا، أحيانًا تخبرني عن ذهابها إلى هناك عندما تعود، تخبرني إن المكان أصبح قريبًا من قلبها، تأخذ لوحاتها وألوانها وتعود كل ليلة بلوحة جديدة، اختلفنا في أشياء كثيرة أنا وهي ولكن يظل حب الرسم هو أكثر ما تشابهنا فيه...

- بقيتي تحبي تروحي هناك انتي...

- بلاقي نفسي هناك...

- انتي لسه بتحبيني؟



تقترب مني وتنظر لي بشفقة، تداعب ذقني بأناملها الرقيقة وهي ما زالت تنظر لي تلك النظرة الحانية، في الحقيقة هي لم تكن نظرة أفهمها مطلقا، هل هي نظرة الحب التي اعتدت عليها أم هي شفقة؟ أم تكون هي هلاوسي الشخصية الغير مفهومة أو غير مبررة...؟

أهي ما زالت ريماس؟

***

أعلم إنني أنشغل كثيرًا، العمل والمستقبل وأفكاره، هي في الأغلب أهم ما عندي، أنخرط في عملي لساعات أعجز في بعض الأحيان عن عدها، أسهو عن العودة إلى البيت، أتغافل عن واجباتي أحيانا كزوج، وأعود بعدها إلى رشدي أطالب بحقوقي كزوج وحبيب ورجل...

***

تغلق مريم أوراقها وتلملم أشياءها في حقيبتها وأنا أقرأ على وجهها علامات الرضا والارتياح عن مشروعها...

- تقريبًا كدا المشروع خلص، ولا إيه؟

- هتوحشني القعدة دي يا خالو والله

- تعالوا أي وقت يعجبكم... المهم زي ما قلت قبل كدا... زي ما دخلتم هنا زي ما هتخرجوا

- خالو يونس... ازاي أقدر أعرف إني مش بشوف هلاوس؟

- الهلاوس أعراضها بتبقى واضحة أوي يا مريم... مش هتحتاج منك أو من الناس اللي حواليكي إنهم يكتشفوها؟ طول ما في حواليكي ناس بيحبوكي زيي كدا عمرك ما هيبقى عندك هلاوس، عشان وقتها أنا هحميكي واخد بالي منك، في الأغلب اللي بيبقى عنده هلاوس بيبقى وحيد ومكروه....

- زي اللي بيدخل في bad trip كدا؟



- آه يا صايعة... صحيح هي فين تيا؟

- بقالها كام يوم مختفية... بكلمها مش بترد، هي كدا ساعات بتختفي وتظهر

- تمام... أنا بس حبيت أتطمن... سلمي لي عليها أما تشوفيها...

كنت أعلم جيدًا سبب عدم حضور تيا هذا اليوم، أعلم أنها في تلك اللحظة تواجه خوفها لأول مرة، وأنها ستنتقم ممن آذاها وشوه قلبها، اليوم فقط تيا ستتحول من فتاة إلى امرأة قوية...

أعلم أنها في هذه الساعة تقف أمام شقة هادي، ستفضحه وتفضح جميع قصصه مع كل الفتيات التي قام بخداعهن لأعوام... وعندها فقط ستكون قد شفيت تمامًا...



عزيزي شو،

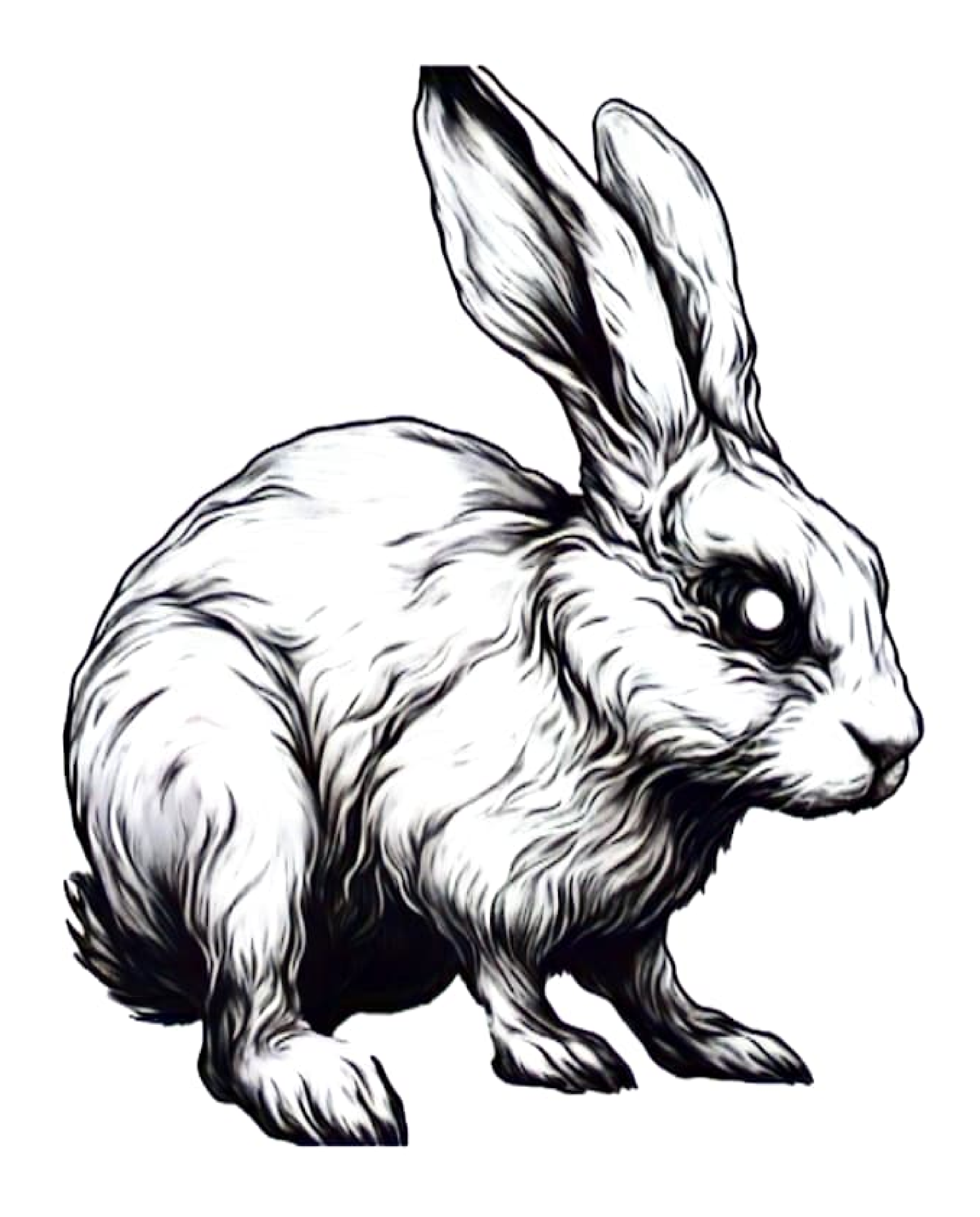
بدأ هذا الشعور يزيد داخلي، أرى الخيانة ولا أراها، أشعر بمتغيرات كثيرة لا أفهمها... كل شيء مختلف حتى رائحة نفسها وابتسامتها... لم أعد أعرفها... أريد حلًا سريعًا قبل أن أجن...

فينسنت



الفصل الحادي عشر

حنين





- كمل الحكاية يا شريف... إيه اللي حصل بعد كدا؟

- اتعلقت بأسوان فعلًا... بدأت أشوف إن قرار نقلي السنة دي كان من أكتر الحاجات الصح اللي حصلت في حياتي... حسيت إنه كان أفضل مكان لبداية حياة زوجية هادية ومريحة... حاولت خلال السنة دي أخليها مش محتاجة حاجة... مش قصدي من الناحية المادية أكيد... كدا كدا دا شيء مفروغ منه... أنا أقصد كنت بحاول دايمًا ما اخليهاش تحس إنها لوحدها أو مثلًا أخليها زهقانة... دايمًا بعمل الحاجات اللي تخليها فرحانة... كانت فعلًا أحلى سنة في عمري...

- شريف إنت ليه ما بتحبش تقول اسمها...؟

- مش حاسس إني قادر أعمل دا دلوقتي يا يونس...

- دا هروب؟

- أنا عمري ما هربت يا يونس... عمري ما هربت...

- طب سيبنا من اسمها دلوقتي... ممكن تقولي إيه وجه الشبه بينها وبين حنين؟

- الاتنين كانوا محتاجين مساعدة يا يونس... الاتنين كانوا تايهين... الاتنين كانوا محتاجين اللي يلاقيهم

- احكي لي أكتر عنها... مراتك أو يعني اللي كانت مراتك

- هي الشجرة المحرمة، اللي شكلها ساطع وبيلمع بس أما تلمسها ترميك لنهايتك، هي فيلم سينما إعلانه يبهرك بس محتوى الفيلم لما تشوفه فاضي وضعيف... لو عندك خزنة مليانة فلوس وكل يوم تاخد من الخزنة دي من غير حساب أو شعور، هيحصل إيه للخزنة دي يا يونس...؟

- هتفضى...

- أنا فضيت يا يونس... فضيت وبقى مستحيل أتملي تاني...



***

أحيانًا أتخيل نفسي في الفراش مع كنزي، أجردها من ملابسها واتجرعها كنبيذ أحمر عتق منذ عشرين عامًا، أراها تقترب إليّ عارية الجسد كما ولدتها أمها، تتحرك فتتحرك منحنياتها المنحوتة بعناية فائقة، أنهال عليها، أتذوقها مرارًا وتكرارًا حتى أنتهي منها، بعدها أُخرج مسدسًا من أسفل وسادتي وأفرغ الرصاص في قلبها؛ لكنها لا تموت، فهي بلا قلب فلا تتأذى، تضحك هي ضحكة مخيفة وأرتعد أنا خوفًا من هيئتها الشيطانية، أراها تقترب نحوي تحاول أن تقطعني بأنيابها، أصرخ فأفتح عيني لأجدني في عيادتي وعم أباظة ينظر لي في حزن...

- اهدى يا يونس... أنت كويس

- ما تخفش عليا... روّح انت يا عم أباظة...

- أروّح إيه بس وانت كدا؟

- يعني هي أول مرة... أنا بس هاخد الدوا وابقى تمام

- انت عارف إن الدوا مش هو الحل... بس براحتك

***

أصبح شريف، يشبه المجاذيب، لم يعد يهتم بهيئته الخارجية، أصبح مشوهًا من الداخل والخارج أيضًا، لم يعد يحلق لحيته، السواد أصبح ظاهرًا أكثر أسفل عينه، و أصبحت أنا أشعر بفشلي كطبيب معالج له، لا يتحسن وأنا لم أعد أفهم كيفية مساعدته...

- امتى حسيت إنك فضيت من جواك يا شريف؟

- الطوفان لما بييجي بياخد معاه الأخضر واليابس...

- امتى قررت تسيب الشغل؟

- حنين هي اللي خلتني أعمل كدا، شافتني إنسان فاشل، لقيتها بعد فوات



الأوان وما عرفتش أنقذها... يمكن عشان وقتها ماكنتش طبيعي... يمكن عشان طلاقي وقضية حنين كانوا تقريبًا في نفسي الوقت... فمعدتش عارف أبقى شريف الظابط الشاطر اللي قادر يدور... أنا مهمل وضعيف يا يونس

- كفاية تحسس نفسك بتأنيب ضمير إنت مالكش أي علاقة بإنه حصل... كفاية يا شريف! !

- لا مش كفاية... تقدر تقول لي أنا ليه لسه عايش؟ تقدر تقول لي ليه واحدة تموت بسببي؟

- وبعيدهالك يا شريف... إنت مش السبب... السبب كله في الناس اللي حبيناهم وما استاهلوش الحب دا...

***

عندما كنت أحكي لأي شخص عن شعوري الدائم بالخوف من أحلام الصحو أو مطاردة الكوابيس لي، كنت أستمع دائمًا لبعض النصائح التي أراها هزلية بعض الشيء، نصائح باهتة قد تسمعها من شخصٍ باهت يقدم برنامجًا تلفزيونيًا سطحيًا أو يكتب مقالة رخيصة من أجل حفنة من الجنيهات، مثل الاستماع إلى أصوات الطبيعة والبحر والعصافير قبل الخلود إلى النوم، حيث أن هذه الأصوات تكون آخر أصوات فى ذهنك أو لا تتناول الطعام قبل النوم مباشرة لأن تناول الطعام قبل النوم يجعلك أكثر عرضة للكوابيس، لا تنام على بطنك لأن النوم على البطن له أثار سلبية على المعدة ويجعلكِ تحلم بالكوابيس بشكل أكبر، الابتعاد عن الأفكار السلبية قبل النوم، وتجنب التفكير في مشكلات الحياة قبل النوم وتجنب أيضًا قراءة قصص الرعب أو الكتب التي تعطي تأثيرات سلبية عليكِ، لأنها تزيد فرص حدوث الكوابيس، "ماذا عن حواديت مرضاي؟"، تجنب عمل أشياء تصيبك بالقلق قبل النوم، مثل العمل في وقت متأخر، كتابة الواجبات المنزلية، لأن هذه الأمور ستجعلك تدمر أحلامك. قم بممارسة تمارين اليوجا أو التأمل قبل النوم باعتبارها من الأشياء ذات التأثير الإيجابي عليك.



"أنا أمارس رياضة الحزن في الواقع"، أحرص على الحصول على الراحة أثناء النوم باستخدام الوسائد المريحة والأغطية، فكلما حصلت على الراحة أثناء النوم كلما حصلت على الأحلام السعيدة "أنا لا أنام... أنا لا أنام... أنا لا أنام"....

***

كان كابوس الليلة مزعجًا حقًا، بعض الكوابيس يؤلمك صخبها أكثر من كونها مرعبة، كنت أقف على كورنيش النيل في أسوان، أشاهد مركبة شراعية جميلة تتمايل مع حركة النيل الانسيابية، فجأة سمعت هتافات وضحكات عالية تخترق أذني، كان محروس والد عصفورة يتمايل أمام المارة مبتسمًا ومن خلفه قرد عملاق، يشبه "كينج كونج"، كان محروس غاضبًا وهو يأمر شفيق أن يعود إلى حجمه الطبيعي، على الضفة الأخرى وقفت سعيدة تضرب الأرض بفأسها والعرق يتصبب من جبينها فيتحول لكل من الدماء تحت قدميها، رأيت شفيق يجري نحوي يحاول أن يدهسني بقدمه، نظرت حولي باحثًا عن أي مساعدة؛ فرأيت شريف مبتسمًا يمسك عصفورة من يدها ويقربها إلى موضع قلبه فتبكي هي وتختبئ في حضنه، أطلب منه المساعدة؛ لكنه لا يجيب، السماء تبدأ أمطارها في الهطول أم هي دموع حنين؟ المارة ما زالوا يضحكون ولا أمل من المساعدة، صوت الطبلة في يد محروس يكاد إن يفجر رأسي من شدة إزعاجها، أجري كثيرًا ولكني أكتشف إنني ما زلت في مكاني في حالة مخيفة من الثبات، الظلام يتخلل الحلم، سواد حالك من كل جانب، يقف فينسنت يحمل فرشاته وألوانه، يبتسم لي وكأنه يريد إن يقول "لا تخاف"، يبدأ في الرسم، فتهدأ الاصوات، يبدأ في الرسم فأعود للحياة مرة أخرى ، أفتح عيني لأجدني في غرفتي بالعيادة أتصبب عرقًا كحيوان بري يجري منذ أيام في صحراء حارقة....

***

- أصعب حاجة في الدنيا يا يونس، لما تحس إنك واقف بتحارب لوحدك



- حتى لو حرب متكافئة؟

- بس أنا حربي مفيهاش أي أساس من العدل، أنا مُطالب إني أحارب ذكريات بنيت عليها حياتي وقصتي، مطالب إني أصبر ودا المحنة الأعظم يا يونس... مفيش حد اتجرح وصبر وطلع من بعد صبره إنسان سليم...

- مفيش حاجة ملهاش أعراض جانبية، حتى الدوا اللي بناخده عشان يعالجنا بيبقى ليه أعراض جانبية...

- الحياة وحشة من غيرها... ووحشة بيها يا يونس...

أبتسم له ابتسامة صفراء بالطبع، لا أستطيع أن أتظاهر أن كلامه لا يؤلمني ولا يلمسني ويلمس ألمي، مشكلتي إنني أحببتها حقًا، جعلتها طريقي وملاذي وجعلتني هي مجرد استراحة في طريقها الطويل، استراحة تناولت فيها بعض الطعام، تجرعت الماء حتى ارتوت، أزالت الغبار عنها ومن ثم تحركت مرة أخرى في طريقها دون أن تدفع ثمن ما تناولت...

"حنين جوانا يحكي وشوق جوانا يبكي والدمع ساقية كبت"

***

- كنتي فين يا ريماس...

- بره...

- فعلًا؟... ما أنا عارف إنك كنتي بره، كنتي فين ومع مين؟

- كنت في الفيوم، حاتم كان عنده تصوير وقال لي أروح أتفرج وبعدها رجعت...

- انتي مش حاسة إنك بقيتي تشوفي حاتم نور كتير؟ ما تنسيش إنه حالة عندي في العيادة

- وانت ما تنساش إنك إنت اللي عرفتني عليه، بلاش دور الغيران دا يا يونس عشان مش لايق عليك...



- انتي حبيتيه يا ريماس؟ اللي بينا خلص يعني وبقيتي تحبي حاتم نور؟

- هو اللي بينا يا يونس؟ إيه اللي لسه فاضل؟ أنا حتى ما بقتش أفهمك... انت مش بتروح البيت غير عشان تستحمى وتغير هدومك، بقيت بتتعامل مع البيت على إنه فندق، عايش وسط حالاتك ومرضاك وكأنك عايز تثبت لنفسك كل يوم إنك دكتور مفيش زيه

- ليه دايمًا لازم تقلبي الترابيزة؟ ليه مفيش مرة في كلامنا قدرتي تواجهي نفسك وتقولي إنك غلطانة؟

***

الخبر احتل كل الجرائد والصحف ومواقع التواصل الاجتماعي، الخبر في كل مكان حرفيًا، "العثور على الفنان حاتم نور مقتولًا في قصره"...

- إيه اللي حصل يا حاج؟

- أستاذ حاتم الله يرحمه كان بييجي القصر كتير الفترة اللي فاتت، يقعد يوم ولا يومين ويرجع تاني القاهرة، المرة دي قعدته طولت فقلقت عليه، ولما خبطنا عليه وما فتحش كسرنا الباب ولقيناه غرقان في دمه زي ما سعادتك شايف كدا يا باشا...

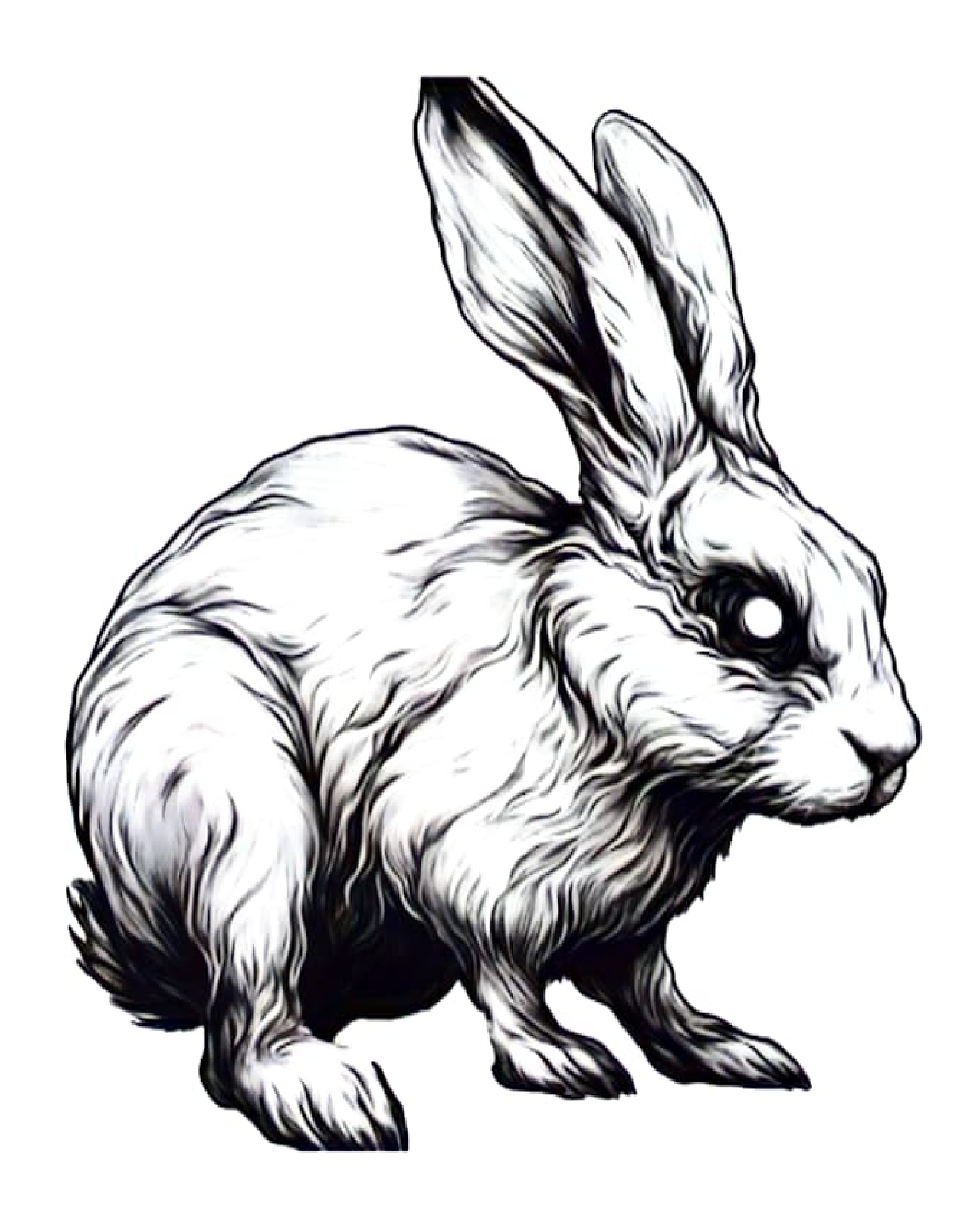
- في حد جاله الفترة دي القصر؟

- الله أعلم يا باشا، حضرتك عارف إن أستاذ حاتم فنان فا بيزوره ناس كتير، وأنا راجل نظري على قدي فا مش بركز مين طالع ومين نازل...

- عمومًا لو افتكرت أي حاجة يا ريت تبلغني، نمري معاك...

الفصل الثاني عشر

خيبات أمل متكررة





أجلس في العيادة وحدي أنا وأنفاسي المتلاحقة، الساعة تشير إلى الثالثة صباحًا، يداي ملطختان بالدماء، السكين التي قتلت حاتم بها أضعها أمامي على المكتب، الغرفة تدور وتدور بي، يكاد ألم رأسي أن يفتك بي...

أعيد المشهد مرارًا وتكرارًا داخل رأسي، أرى نفسي أتسلل مثل اللصوص، أحاول أن أتفادى كاميرات المراقبة، أرتدي نظارة شمسية وكاب كي أخفي ملامحي تمامًا، أرن جرس الباب فيفتح حاتم، يبتسم في قلق عندما يدرك أنني من على الباب، يدعوني إلى الدخول وأبدأ أنا الكلام...

- ليه يا حاتم؟... دا أنا كنت بعتبرك صاحبي وأخويا...

- حبيتها يا يونس... غصب عني لقيت نفسي بحبها

- وأنا؟ ما فكرتش فيا؟

- أنا ملمستهاش يا يونس... ضميري بيعذبني كل يوم...

- ما كنش لازم تلمسها عشان يبقى اسمك خنتني... أنا فتحت لك بابي ودخلتك بيتي... وفي الآخر تعمل كدا؟

- سامحني يا يونس...

- احكي لي كل حاجة يا حاتم... كل حاجة...

يقطع تذكري لما حدث صوت جرس باب العيادة وخبطات عنيفة متتالية على الباب، أقوم من مكاني متثاقلًا كالمخمور، أفتح الباب بصعوبة، فيعاجلني شريف بلكمة على وجهي تجعلني أتدحرج إلى الخلف، ما زلت لا أستطيع السيطرة تمامًا على نفسي، أتحامل وأقوم لأستعد للضربة التالية، شريف يبدو مثل الثور الهائج، يجذبني من رأسي ويرميني على الكرسي داخل غرفتي بالعيادة، يخرج مسدسه ويضعه أمام وجهي...

وقف شريف مهتزًا متوترًا وهو يصوب فوهة مسدسه إلى رأسي، يترنح مثل المخمور وشفتاه ترتعشان، العشرات من الأفكار والقرارات تدور بداخله ولا يستطيع إن يأخذ قرارًا واحدًا...



- كفاية أوي كدا... العبث دا لازم يخلص ودلوقتي

- ما توديش نفسك في داهية، نزل المسدس دا يا شريف...

- أروح في داهية بدل ما أنا عايش كدا... هيحصل إيه يعني؟ هيعدموني؟ برضه هيبقى أريح من اللي أنا عايشه دا...

كان ترنحه يزداد ولسانه يصاب بثقل أكثر في النطق، يحارب لكي تخرج كلماته صحيحة ومتزنة...

- طب نزل المسدس وخلينا نقعد نتكلم... أوعدك هريحك...

- فات وقت الكلام.. أنا هحرق قلبك واحرقك زي ما حرقتني كل يوم...

- أنا عمري ما أذيتك يا شريف... كنت دايمًا معاك... مفيش حد كان جنبك زي ما أنا كنت جنبك...

- انت استغليت كل اللي كنت بحكيهولك ونفذت جريمتك بخطوات حكايتي... ازاي هقدر أعيش بالذنب دا! ! أنت لازم تموت يا يونس؟ ! و أنا كان لازم أموت! !

- افهم بقى يا أخي! ! أنا بحكايتك أو من غيرها كنت هعمل كدا! ! وانت يا اللي اسمك راجل القانون، لما اتخانت نسيت كل اللي اتربيت عليه وقررت تطفي نارك بإيدك... جاي تلومني أنا ليه؟ !

بدأ شريف في النحيب، يبكي مثل الأطفال، أخفض مسدسه قليلا، فقمت من مكاني لأخرج وأهرب من العيادة، شريف ليس في حالته الطبيعية التي تسمح له أو لي بالمناقشة أو الحديث، شريف لم يعد يتناول أدويته، شعر بحركتي فعاجلني بلكمة أخرى أسقطتني أرضًا، مسح دموعه بكمه وحاول أن يصوب مسدسه عليّ مرة أخرة ولكني كنت أسرع منه وأمسكت بقدميه وأسقطته أرضًا، طار مسدسه بعيدًا عند سقوطه فأمسكت بيديه وأنا أصرخ به..



- خليني أحكي لك الأول... و لو موتي هيريحك، صدقني هسيبك تقتلني وأنا مبسوط

- احكي! !

***

هي قصة تقليدية تمامًا من قصص الخيانة التي نراها ونسمعها كل يوم من صديق أو غريب حتى، كنا كل شيء للآخر، و مع مرور الوقت أصبح الوضع أشبه بمنزل كبير ينهار ويتهاوى، ومع تزايد شعوري أنه أصبح كل ما لديها وكل ما تريد، بدأت أنا أيضًا أصبح إنسانًا آخر، أتأخر عن عملي وأثور لأتفه الأسباب، أصبحت أفرح وأبكي لأتفه الأسباب، أصبح الشك هو رفيقي الجديد، أسألها لا تجيب، ولا أستطيع أن أعثر على دليل واحد يثبت إن ريماس لم تعد تريدني، ومع ازدياد الشك ازدادت الكوابيس، أصبحت الكوابيس تمسك بي في صحوي ونومي، أنتفض منها مرتجفًا وغارقًا في عرقي، أحارب حربًا أعلم إنني مهزوم بها لا محالة مع المحاولات البائسة كي أقاوم تلك الكوابيس، أقوم من مكاني وأعتدل في جلستي، أحاول أن أضع قدمي على الأرض لكي أتأكد من صلابتها ولكني أسقط مرة أخرى في بحرٍ أسود لزج، أبدأ في الغرق وأنادي عليها ولكنها لا تجيب، "ريمااااس" أقولها بعلو صوتي ولكنه صوت مكتوم لا قوة فيه ولا أمل... أستسلم أخيرًا للغرق وأستقبل انقطاع أنفاسي بصدر رحب...

- خروجاتك زادت أوي يا ريماس

- انت يعني ولا عايز ترحم ولا تسيب رحمة ربنا تنزل... عايز مني إيه يا يونس؟

- عايزك... بحبك

- انت ما بتحبش حد غيرك يا يونس... واجه نفسك مرة واحدة...

***



هل أنا مريض اكتئاب؟ حقًا لا أعلم ولا أستطيع أن أدرك هذا بعد، الاكتئاب مرض يميزه الشعور الدائم بالحزن، فمشاعر الحزن الطبيعية نمر بها جميعًا من وقت إلى آخر، ولكن مع الاكتئاب يستمر الأمر أسابيع وقد يستمر لشهور، مع فقدان الاهتمام بالأنشطة التي يتمتع بها الشخص عادة، كما يقترن الاكتئاب أيضًا بالعجز عن أداء الأنشطة اليومية البسيطة والتي تشكل همًا كبيرًا لمريض الاكتئاب، كذلك الشعور بالقلق، والشعور بعدم احترام الذات أو الذنب أو اليأس، وأفكار سلبية غير منتهية تجاه النفس والآخرين والتفكير في إيذاء النفس أو الانتحار.

ريماس تحولت من حبيبة لشبح يمتص كل ما بداخلي من حياة...

***

بدأت أهدأ قليلًا وأنا أسرد لشريف ما حدث...

- واجهته يا شريف، اعترف بمنتهى البساطة إنه خاين... اعترف إنه بيحب مراتي وهي بتحبه...

- فا تقتله؟ أنا حكيت لك حكايتي عشان تساعدني مش عشان تعمل زيي...

- إنت كداب! ! اسأل زيتون هيقول لك إنك عملت اللي كان لازم يتعمل، هيقول لك قد إيه إنت راضي عن نفسك وإنك بتوهم نفسك بالذنب دا عشان ترتاح...

بدأ شريف في البكاء مرة أخرى، وقتها استغللت الفرصة وأمسكت بالمسدس كي أقتله وأتخلص منه إلى الأبد، لكنه عاجلني بضربة قوية جعلتني أترنح وسحب من يدي المسدس وصوبه إلى رأسي تمامًا...

- مع السلامة يا يونس...

كان الصوت الذي تلى الجملة الأخيرة صوتًا مدويًا اهتزت لأجله أرجاء البناية بالكامل، زجاج يتطاير في كل مكان وأصوات غريبة يصعب تمييزها،



وبعدها توقف كل شيء.....

***

في صباح اليوم التالي، كانت الفوضى تعم أرجاء العيادة، لا يوجد شيءٌ سليمٌ أو في مكانه، أشياء محطمة ومبعثرة في كل مكان، آثار دماء تعلو المكتب، أما عن المرآة الطويلة فتحطم زجاجها بالكامل إثر إطلاق عدة رصاصات عليها...

فتحت عيني بصعوبة والزجاج حولي في كل مكان، جروح طفيفة أصابتني، و لكن... ماهذا؟ كيف أكون على قيد الحياة؟ كيف لم أمت؟ ألم يطلق شريف الرصاص عليّ ليلة أمس؟ لماذا رأسي ما زالت قطعة واحدة؟... قمت من مكاني بصعوبة وذهبت إلى شاشة كاميرات المراقبة كي أشاهد ما حدث بالأمس لعلي أفهم ماذا يحدث...

ما رأيت جعل توازني يختل، ما رأيت جعل الدموع تنهمر من عيني، على الشاشة رأيت نفسي أقف وحدي تمامًا في الغرفة، أصيح إلى نفسي في المرآة، أقوم برفع الصوت فأستمع إلى نفسي، مرتين، بصوتين مختلفين، أقوم بضرب نفسي والتحدث إلى نفسي ومحاولتي مرارًا وتكرارًا كي أقتل نفسي، أين شريف؟ من يونس؟ أنا الاثنين؟...

تذكرت وقتها تلك القصة التي كانت تحكيها لي أختي وأنا طفل صغير...

- هحكي لك النهارده قصة الدكتور جيكل ومستر هايد

- هو كل يوم الحدوتة دي؟

- أنا بحكيها لك عشان كل مرة تتخيل للحكاية نهاية جديدة

احفظ أحداث الرواية عن ظهر قلب، احفظها أكثر من أي شيء آخر...

قصة رجل شرير بدرجة مرعبة، بحيث أنه داس على فتاة صغيرة بقدمه في الشارع، وقد أخذا منه تعويضًا لأسرة الفتاة، ولكن أصابتهما الدهشة



حين رأوا الشيك الذي كتب فيه المبلغ، فقد كان من أمامهما رجلٌ ملعون يشع الشر منه، بينما كان الاسم المكتوب في الشيك لرجل عظيم اللباقة والأهمية!

كان الرجل الذي دهس الفتاة يدعى هايد، وكان المستر أترسون محاميًا، وكان لعجبه قد رأى اسم ذلك الرجل الكريه في وصية رجل مرموق يدعى الدكتور جيكل، الذي أوصى أنه بعد وفاته تنتقل كل ثروته للمستر ادوارد هايد، هذا إذا اختفى الدكتور جيكل لمدة ثلاثة أشهر قمرية... شغل المستر أترسون بهذا الرجل الغامض الكريه هايد، وذهب ليسأل عن الدكتور جيكل طبيبًا صديقًا له يسمى الدكتور لانيون، فأخبره أنه تعرض لاضطراب عقلي، ودخل في بعض الهراء غير العلمي، مما جعله يبتعد عنه بعض الشيء.

أخذ المستر أترسون يراقب ذلك الباب الخلفي لبيت الدكتور جيكل، والذي كان قد دخل منه هايد لإحضار الشيك، وفي ليلة من الليالي وجد ذلك الرجل صغير الحجم عادي الثياب يتقدم نحو ذلك الباب الصغير وكأنه يدنو من داره الخاصة، تقدم إليه وسأله عن الدكتور جيكل وكيف أنه لم يذكره له، ولكن الرجل كان خشنًا، ثم فتح الباب ودخل وأغلقه وراءه في غلظة، بعد أسبوعين دعا الدكتور جيكل خمسة من أصدقائه القدامى، كان من بينهم المستر أترسون المحامي. كان الدكتور جيكل رجلًا ضخمًا، متين البنيان، في الخمسين، له نظرة ماكرة، برغم ما يظهر عليه من علامات الوجاهة والرقة، حاول أترسون إن يسأل الدكتور جيكل عن هايد والوصية الغريبة التي تركها له، فلم يلقَ قبولًا من الطبيب، ثم قال له: أرجو إن يلقى منك العدل، ولا أتوقع أن تحبه في يوم من الأيام.

بعدما يزيد على العام وقعت جريمة قتل لرجل يدعى كارو، وشهدت فتاة أن الذي قتله هو هايد بعد نوبة غضب اعترته، فحطم فوق رأس الرجل عصاه، وأخذ يدهسه بأقدامه حتى قتله، وكان هناك خطاب مع القتيل باسم المحامي أترسون، توجه مفتش الشرطة مع أترسون إلى منزل هايد ولم يجداه في المنزل؛ فقد كان من المعتاد أن يتغيب عن البيت شهرًا أو شهرين،



ذهب أترسون إلى منزل جيكل ليجده مريضًا جدًا، وأطلعه الطبيب على خطاب من هايد بخط رديء فيه اعتذار، وأنه سبب الأذى للدكتور جيكل، وعلم أترسون إن هايد هو الذي أملى شروط الوصية على جيكل، وخمن أنه كان ينوي قتل جيكل؛ ليحصل على الثروة، وكان جيكل يبدو عليه الندم ويقول: لقد تلقَّيْتُ درسًا لن أنساه.

أخذ أترسون الخطاب إلى مكتبه، وتشاور مع كبير كتبته في الأمر، وكان يثق برأيه، وفي هذه اللحظة وردت دعوة لأترسون للعشاء مع الدكتور جيكل، وأخذ الكاتب يقارن الورقتين المكتوبتين، فدهش أترسون وقال: لماذا قارنتهما؟ فقال الكاتب: لأن هناك تشابهٌ استثنائي بينهما؛ فاليدان متشابهتان، مع اختلاف ميل الكتّابة، وظنًّا أن الرسالة ربما تكون مزيفة!

لم يُعثر على القاتل؛ فقد اختفى هايد تمامًا، وبدأ هنري جيكل يعود لحياة اجتماعية وعلاقات طيبة طالت لمدة شهرين، لكنه مرة أخرى عاد لمنع الناس من زيارته بحجة المرض، فذهب أترسون إلى صديقيهما المشترك الدكتور لانيون ليسأله عن جيكل، فوجده مريضًا أيضًا وقال: لقد التقيت بهذا المدعو جيكل، وأرجو ألا تسألني عنه مرة أخرى... بعد أيام توفي الدكتور لانيون، ووصل منه خطاب مختوم لأترسون، ففتحه، لكن وجد بداخله خطابًا: لا يفتح إلا بعد موت أو اختفاء د.هنري جيكل، وقاوم أترسون فضوله، وغلَّب شرفه المهني، فلم يفتح الخطاب، واحتفظ به في خزانته، لم يستطع أترسون الوصول إلى الطبيب المنعزل، وكان يمشي هو وصاحب له ووجدا أنهما وصلا إلى الشارع الخلفي الذي يطل على باب مختبر جيكل الخلفي، ووجداه يطل من نافذة منخفضة على الشارع، حادَثَ أترسون الطبيب الشاحب المريض ليستحثه على الخروج، لكن جيكل نظر لهما نظرة قنوط وهلع، أحس معها الرجلان بالرعب، وابتعدا عنه مذعورين وهما يقولان "فليسامحنا الله".

وجد أترسون كبير خدم الدكتور جيكل يهرع إليه خائفًا ليأتي معه ليرى ما حل بسيده الطبيب، ذهب أترسون ليجد كل الخدم في استقباله خائفين



وكأنهم مع شيطان في بيت واحد، قال الخادم: إن سيده كان يرسلهم للإتيان بمواد كيميائية معينة من المتجر، لكنها لم تكن بالنقاء المطلوب، وكان يرد عليه بصوت غريب وقد رآه مرة فوجده كأنه يلبس قناعًا مشوهًا ويصرخ كالفأر، وهو قصير كالقزم وسيده فارع البنيان، كان الخادم يشك إن سيده قد قُتل، وأن الشيء الموجود بالداخل هو مستر هايد! تعاون الخادم مع أترسون وكسرا الباب العتيق، ودخلا إلى المختبر، وأخذا يفتشان عن الطبيب، وجدا هايد ملقى على الأرض، كان ميتًا، وقد أعد العدة ليشرب الشاي، والسكر في القدح، وظنا أن الطبيب هنا أو هناك، فأخذا يناديان ولا مجيب، كانت هناك قارورة تغلي، وعلى المكتب أوراق، وكان هناك مظروف يحمل اسم أترسون، كانت هناك وصية أخرى، وبدلًا من اسم هايد كان هناك اسم أترسون، وورقة أخرى بخط الطبيب عليها تاريخ اليوم يدعوه فيها بأن يقرأ الخطاب الذي أعطاه له الدكتور لانيون ووضعه في خزانته، لأنه حين يقرأ هذه الورقة سيكون قد توارى، وكان هناك أيضًا طرد صغير مختوم.

قرأ أترسون الخطاب الذي كان عنده، كان من د. جيكل لـ د. لانيون يطلب منه أن يذهب إلى بيته ليأتي بمحتويات درج ما في مختبره، ويعطيه لشخص سيأتيه، ويخبره أن هذا الأمر تتوقف عليه حياته، فعل الدكتور لانيون ما طلب منه، وأعطى الأشياء للرجل القصير الذي جاء إليه، وأمام عيني لانيون المندهشتين المرتعبتين تناول هايد خليطًا من المواد التي أحضرت، وتحول ذلك الرجل الضئيل البشع بعد اهتزاز واضطراب إلى شخص أكبر حجمًا وأفضل شكلًا... إلى الدكتور هنري جيكل!

ترك الكاتب النهاية مفتوحة، هل سيموت هايد على مشنقة الشجاعة ويرجع جيكل مرة أخرى أم يستمر هايد؟ هكذا هو الصراع الدائم في نفس الإنسان بين الخير والشر، والذي يستمر معه إلى آخر الحياة، إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها...

- أنا مين! !



قلتها صارخًا في حرقة وأنا أتهاوى وأجلس على مقعدي لأستعيد توازني، أمسك بزجاجة الماء من أمامي وأتجرعها كالمجذوب، الماء يتصبب فوق رقبتي وملابسي وأنا لا أفيق تمامًا بعد، في الماضي كنت أطلق على تلك الحالة، حالة مستر هايد، أما الآن كطبيب ،فالاسم الطبي لما يحدث هو، اضطراب الهوية التفارقي! ! !

أغمض عيني...

و أبدأ في التذكر، تذكر القصة من البداية...

يونس شريف الدين، ضابط الشرطة في البداية ومن ثم الطبيب النفسي...

كيف بدأ كل شيء؟



عزيزي ثيو،

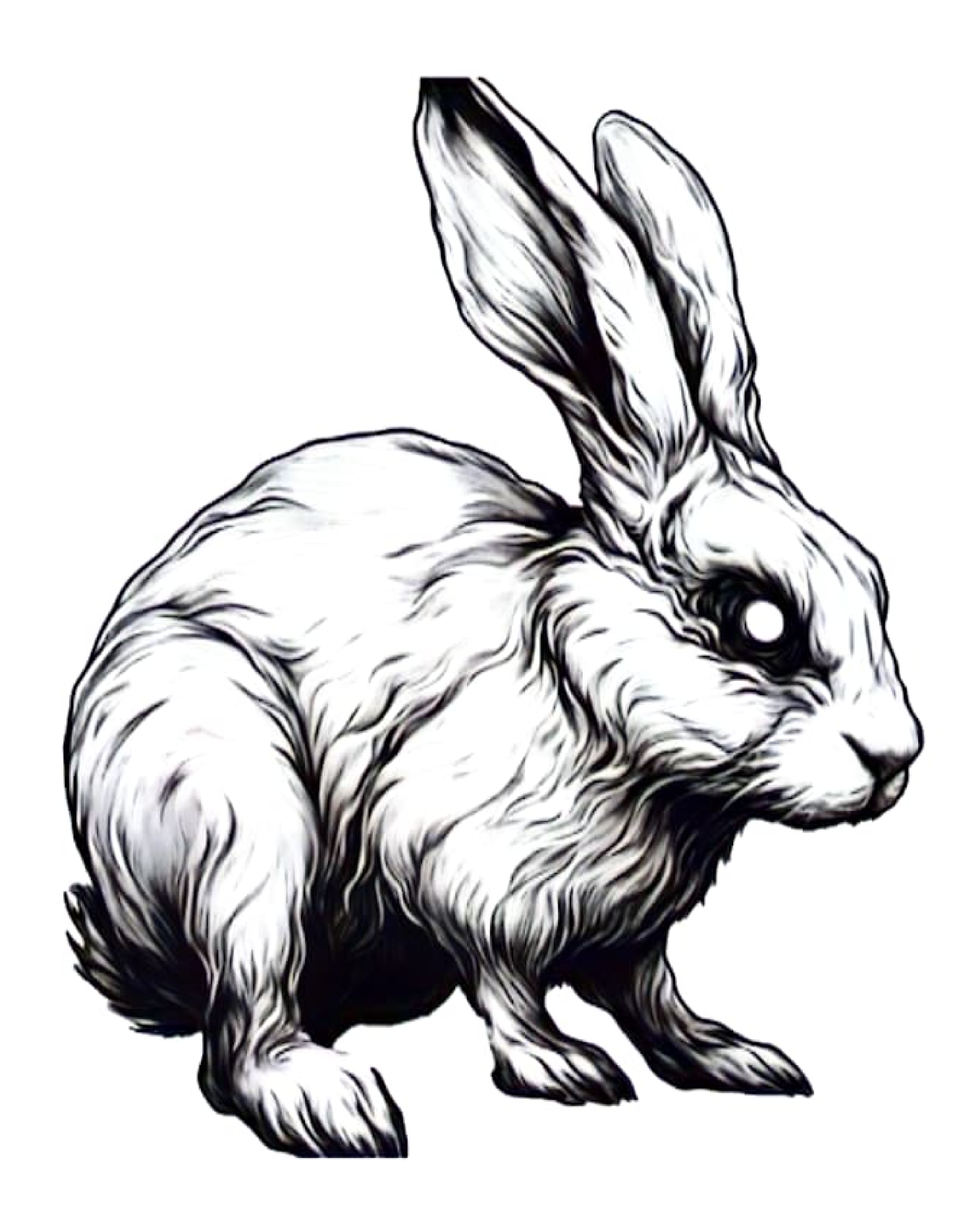
أنا لم أعد أعلم حقًا من أنا...

فنسنت



الفصل الثالث عشر

الكابوس





كنت ضابطًا ناجحًا، أتذكر هذا جيدًا، كان الجميع يطلق علي لقب "المخاوي"، يونس باشا شريف المخاوي، لقدرتي الفائقة على حل كل القضايا بسهولة ويسر، كنت أعشق علم النفس، أدرسه إلى جانب عملي كضابط، حصلت على ماجستير في علم النفس وعلم النفس الجنائي، أصبحت ألقي المحاضرات وأكتب العديد من الكتب عن علم النفس وخصائص النفس البشرية، حتى قابلتها ذات يوم... ابتسمت ومدت يدها لتصافحني...

- حنين، من أشد المعجبين بحضرتك وأفكارك

- شكرًا يا آنسة حنين وحقيقي نورتيني

- أنا فعلًا مبسوطة إن حضرتك بتقدر توصل لنا معلومات كبيرة زي دي بالطريقة البسيطة دي...

- حاسس إنك عايزة تقول لي حاجة تانية؟

- حاجات كتير... تشرب قهوة؟

كل شيء بدأ بفنجان قهوة، بعدها تم استبدال القهوة بشربات يوم تزوجتها، أخذتها ورحلنا إلى أسوان، تم الزواج هناك وعشنا معًا سنة من السعادة والحب...

- بابا الله يرحمه كان عايز يسميني ريماس، كان بيقول لماما إن بنتي دي شبه الألماس وهي بقى كانت عايزة تسميني كنزي، فضلوا يتخانقوا كتير على الموضوع دا وفي الآخر قرروا يسموني حنين...

- عارفة إني بحب اسمك أوي؟

- و أنا بحبك إنت يا يونس...

"إيه فعليًا اللي بيغير اللي جوانا؟ يعني إيه أنام واصحي أبقى ما بحبش الإنسان اللي المفروض هو كل حاجة بالنسبة لي..."

- ساعات بخاف من زعلك يا حنين، بتفتحي لي أوقات حضنك على



الآخر، وأول ما أقرب منك أوي تبعدي مرة واحدة وتسيبيني أغرق وانتي واقفة بتتفرجي...

- أنا عارفة إن زعلي كتير بيبقى وحش... بس عمري أبدًا ما هسيبك تغرق...

كاذبة هي، ليس فقط لأنها تركتني أغرق، بل لأنها سبب غرقي، هل السبب لكونها إنسان غريبة لم أعطِ لنفسي الوقت الكافي لكي أعرفها وأعاشرها؟ ولكن ألا تأتي العِشرة بعدد أعوام حبنا؟ هل تسرعت من فكرة الزواج منها؟ المهم، عدنا من أسوان وبدأت المشاكل مع العودة، أصبحت هي شخصًا آخر وأصبحت أنا أهمل عملي، لا تركيز ولا اكتراث، المخاوي أصبح مع مرور الوقت، الفاشل...

أصبحت في تلك الفترة أشبه موسيقيّ يعزف لحنه الأخير فوق التيتانيك وهي تغرق، معزوفة لن تعيدني إلى حياة، فقط ستجعل الموت يبدو أجمل...

ولكن أليس الموت هو الموت؟

- إنت ما بقتش يونس شريف بتاع زمان... مفيش قضية واحدة عارف تحلها؟

- أنا آسف يا افندم... أنا فعلاً بقالي فترة مش كويس

- اعتبر نفسك من النهارده في إجازة مفتوحة... لما تقدر تشيل مسئولية المسمى الوظيفي بتاعك، أنا مكتبي مفتوح ليك...

تركت المنزل وسافرت إلى الإسكندرية، أخبرت حنين أن لدي مأمورية لمدة شهرين هناك، أردت أن أعيد ترتيب أوراقي والتفكير في الخطوة التالية، أردت أن أبتعد حتى يتسنى لي التفكير...

يونس شريف الدين، العاطل الآن... الزوج المحب والذي يجب عليه أن يبذل كل جهده لكي يوفر لزوجته كل شيء، حتى وإن كانت هي سبب



ما هو فيه، حتى إن كانت هي من غيرته، حتى لو أنه لن يصبح هو مجددًا بسببها... اخترتها بإرادتي... لا مجال للهروب الآن... لا مجال كي أعيد كل شيء لحظة البداية وأبتعد... ويبقى السؤال... أهي تستحق كل ما أفعل لها؟ ولماذا...؟

***

في الإسكندرية، وقفت كثيرًا أمام البحر، لا أعلم حقًا كم من الوقت مضى وأنا متيبس في مكاني كشجرة عجوز قاربت على الموت، أتأمل الموج وهو يصارع من أجل الوصول إلى الشاطئ، كم لبثت تلك الأمواج في البحر؟

"مفيش حاجة أصعب من إنك تكون بتبني سعادتك على شخص معين، وبترسم كل مستقبلك معاه وفي الآخر يشوفك شخص فاشل... عديم الجدوى والأهمية..."

أنا لم أكن يومًا من المصنفين كملائكة، لم يدرج اسمي يومًا في قائمة الطيبين أو حتى الطبيعيين، هناك دائمًا هذا الجانب الأسود اللعين الذي يلتهم كل بياض القلب والروح، أنا لم أكن متحكمًا في أشياء وأفعال كثيرة أقدمت على فعلها وندمت كثيرًا عليها...

جلست أمام البحر، غفوت قليلًا وتمنيت ألا أعود إلى الواقع مرة أخرى، في تلك اللحظة قررت أنني سأتجه إلى بداية جديدة، وأنني سأصبح طبيبًا نفسيًا، قررت أن أجد حلًا لكل ما بداخلي من أوجاع من خلال مساعدتي للناس، و القواعد بسيطة... الأمانة في تقييم المريض، احترام الكرامة الإنسانية، التزام السرية، احترام جنس المريض، نبذ العنصرية ونبذ التمييز العرقي...

أدركت تمامًا إن أساس نجاح الطبيب النفسي يعتمد على قدرته على بناء علاقة علاجية سليمة بينه وبين المريض، ولذلك يجب إن ترتكز العلاقة بينهما على الثقة، والتفاهم، والموضوعية من طرف الطبيب النفسي أي أنا،



والتقدير المتبادل بين المريض والطبيب، وتبدأ هذه العلاقة بين الطبيب النفسي والمريض منذ لحظة دخوله إلى غرفة الطبيب...

وقتها قررت إن تصبح عيادتي هي الأفضل والأبسط والأريح للجميع، عيادة تناسب كل الأعمار والفئات والمشاكل، كل ما قد ادخرت من مال في حياتي وضعته في العيادة وبدأ مشواري....

قبل أن أترك الإسكندرية تلك الليلة، و بينما أنا جالس أمام البحر على تلك الدكة الإسمنتية، جائني صديق قديم ليجالسني، صديق ظننته لن يعود مرة أخرى، زيتون....

- وحشتك؟

- انت عارف إجابتي يا زيتون... فا بلاش السؤال دا...

- خلاص؟ يونس باشا هيبقى الدكتور يونس؟

- أنا لسه بفكر... وبعدين مش من حق أي حد إنه يتدخل في أفكاري!

- حتى أنا يا يونس؟ والله عيب... مش كان بيبقى حقي زمان لما كنت بدافع عنك وأساعدك في القضايا اللي كنت بتحلها؟ مش كان بيبقى حقي زمان وانت عيل صغير لما كنت باخد لك حقك؟ ولا عشان بعدت عنك شوية خلاص أنا كدا بقيت غريب؟ أنا عمري ما هسيبك على فكرة... بس وجودي الدائم مالهوش لزوم صدقني...

- آه يا زيتون... هفتح عيادة... و هبعد عن وجع القلب والهم شوية... شغلانة بسيطة وحاجة أنا بحبها

- وأنا من إمتى ما كنتش عايز لك الخير يا يونس... أنا أفرح لما أعرف إنك مبسوط ومرتاح... ساعتها أنا كمان أبقى مبسوط ومرتاح...

- شكرًا يا زيتون... شكرًا





"هو انت ليه سبتها... هو انت ليه عذبتها؟ مش دي اللي عشقها خيالك... وحكيت عنها للناس هو انت إيه اللي جرالك... بتبيع وتخون وخلاص"

هي تسألني عن سبب تغيري الفترة الاخيرة، ولكني لم أتغير، أم أنني تغيرت ولا أرى ذلك؟ أم أنني أصبحت شخصًا آخر غير كافي ولا مناسب لها...

- مشكلتك يا حنين إنك بقيتي عايزة راجل معمولك خصوصي

- تقصد إيه؟! !

- يعني انتي عايزة رسام وموسيقي وشاعر وطبعًا دكتور، عايزاهم كلهم في راجل واحد... عايزة يونس يرسمك كل يوم بشكل جديد، عايزة يونس يبقى مزيكاتي وانتي الملهمة، عايزاه شاعر يكتب لك كل يوم قصيدة ويتغزل فيكي وعايزاه الدكتور اللي يسمع ويفهم ويداوي...

- أنا ما طلبتش كل دا...

- مش محتاجة تقولي كل الكلام عشان تبقي بتطلبيه... ساعات السكوت بيوصل المعاني أحسن بكتير من شوية كلام...

وكأنك إن ضعفت في يوم من الأيام، ستنهال عليك الخناجر من كل مكان، تقطع أوصالك وشرايينك، فقط لأنك أخفقت... مرة واحدة....

***

عندما جاء حاتم إليّ أول مرة في العيادة، وكان يعاني من أزمة شديدة في فعل الحب بحياته، شعرت إن في وجوده أمل لإحياء حبي أنا وحنين، هي فنانة وتحب النجوم وتحب حاتم نور على وجه التحديد كثيرًا، سأساعده كي يكون في أفضل حال وسأجعله مفتاحًا لإنقاذ زوجتي التي تسقط في بحر الظلام...

- شكلك مش كويس يا يونس



- أنا زي الفل، سيبك مني بس وطمني عليك يا فنان، هتخلص تصوير الفيلم الجديد إمتى؟

- يونس أنا بتكلم بجد، يا حبيبي إنت بقيت شبه المدمنين... إنت مش بتنام كويس طيب؟

- ههههه، بالعكس... أنا ببقى تمام لما بنام... المشكلة كلها بقى وانا صاحي...

- مشاكل؟

- كوابيس يا حاتم... كوابيس بعيشها في كل ثانية...



عزيزي ثيو،

أكره تلك المصحة رغم أنها أكثر مكان أرتاح فيه منذ سنوات، لا أحد يسأل عن الماضي، باستثناء الطبيب بالطبع، الكل هنا مريح في المعاملة، وجوه عابسة ولكنها قلوب نقية، لا تعلم حقًا إن كانوا أحياءً أم أمواتًا، فلا كل الأحياء أحياء ولا كل الأموات أموات، الكل يسبح في ملكوته لا يبالي إلى أي شيء، الكل غير مكترث ولا حتى لنفسه، أعتقد أنني أريد البقاء هنا، أعتقد إنني وجدت مكاني أخيرًا...

فنسنت



ما زلت لا أقوى على الحركة جيدًا، أنزع بعض شظايا الزجاج من لحم يدي، فأنزف قليلًا ولكني لا أبالي، أريد أن أتذكر، أريد أن أستعيد الشريط من بدايته حتى النهاية دون أن أنسى شيئًا، أخرج من درج المكتب جهاز تسجيلٍ صغير أستخدمه في جلساتي كأي طبيب نفسي، أعبث بين علب الشرائط فأجد واحدًا يحمل اسم "حنين"، أضعه وأستمع إليه...

يخرج صوتي من الجهاز ضعيفًا حزينًا، كمن خسر الحرب للتو...

"أنا عمري ما بطلت أحب حنين، ومش عارف إيه اللي غيرني فعلًا بس أنا بقيت بشوف حاجات، كل يوم من بعد ما رجعنا من أسوان وأنا بشوف حاجات، في الأول كنت بقول إن دا ضغط الشغل وعشان أنا عمري ما كنت باخد أجازات، بس حتى لما أخدت أجازة واتنين وكنت بقعد في البيت بالأسبوع، كل يوم كان فيه حاجات جديدة بشوفها، أوقات كتير كنت بشوف أطفال وستات قاعدين معايا في البيت، لابسين وشوش حيوانات أليفة، عمرهم ما اتكلموا أو عملوا حاجة... بس وجودهم نفسه كان شيء مخيف، كان دايمًا في الهلاوس دي بشوف أطفال شكلهم مخيف جدًا... وحيوانات أليفة كتير... أرانب أو خرفان... ساعات قطط وعصافير، كانوا دايمًا بيبقوا ساكتين بشكل يتعب النفس، وكان في كل الهلاوس دي دايمًا في صوت ست بتصرخ، لما كنت بفوق من الهلاوس دي كنت ببقى عرقان وخايف ومش عارف حتى أتعامل مع حنين... بقيت بشوف الخوف مني في عيونها... بحاول أحضنها بس كنت بشوف برضه خوف حتى من حضني... فكرت حتى إني أسيبها بس حبي ليها كان بيمنعني... حبي ليها كان دايمًا بيخليني أحس إن فيه أمل..."

نعم... أتذكر جيدًا تلك الأيام، تلك الأيام الذي كنت أتحول فيها لهذا الكائن المرتجف والذي لا يملك بيده حيلة أو حل، كنت أُشبه بفأر صغير دخل إلى منزل كبير، لا يريد الأذى لأي أحد، فأر مذعور يبحث عن الملاذ، عن بقعة مظلمة باردة بعيدة عن أعين القاطنين بالمنزل، الكل يطارده ويريده بالخارج، و الفأر لا يملك سوى أظافره الصغيرة والتي سيحفر بها في



الأرض حفرة ليختبئ أو سيدافع بها عن نفسه، كنت أنا هذا الفأر، أتذكر ذات صباح، كنت جالسًا في المنزل أنا وحنين، نتناول الفطور، حتى رأيت إلى جانبها امرأة ترتدي رأس أرنب وتحمل في يدها سكينًا، قمت من مكاني مندفعًا لأبعدها عن حنين ولكني كنت أدفع حنين نفسها؛ فأسقطها أرضًا وسببت لها جرحًا في رأسها...

- حنين... أنا... أنا آسف

و حاولت أن أساعدها على الوقوف، لكنها دفعتني بيدها

- ابعد عني يا يونس...

- ماكنش قصدي والله... أنا آسف

- خلاص يا يونس قلت... انزل بقى من فضلك...

- حاضر... أنا آسف تاني

***

تعرف الهلوسة أو الهذيان أنها أحاسيس تبدو حقيقية لكنها من إنتاج العقل وليست موجودة فعلاً. تؤثر الهلوسة على الحواس الخمس، فعلى سبيل المثال قد يسمع المريض صوت شخصٍ رغم أنه يكون وحده في المكان، أو يرى صورة غير موجودة أصلاً...

الهلوسة قد تكون في العديد والعديد من الأشكال والمواقف، في الأغلب قد مررت بهم جميعًا، أصبحت في أغلب الأوقات لا أغادر العيادة حتى لا أتسبب في الإحراج لنفسي، أعيش على الكثير من المهدئات حتى أتمالك أعصابي، سري كان مع أباظة العجوز، يعلم متى يجب عليه إن يعطيني الدواء ومتى يكتفي فقط بالنسكافيه، يعلم متى يجب عليه إن يلغي كل مواعيدي ومتى يكتمل اليوم بشكل طبيعي...

- زيتون زيه زي حنين يا شريف.. الاتنين ما ينفعوش يفضلوا جواك..



- لو الاتنين مشيوا... أنا هبقى لوحدي يا يونس...

- مش هتبقى لوحدك... أنا هبقى دايمًا معاك

" كنت دايمًا بقول الجملة دي لما أحس إن شريف اللي جوايا بدأ يضعف، لما شريف كان بيحس إنه وحيد كنت دايمًا بفكره إن يونس موجود، كنت دايمًا بفكره إن يونس مش هيمشي حتى لو التانيين مشيوا، إنه مش محتاج يبقى حد تاني عشان أنا ما امشيش، كان نفسي يفهم إن احنا الاتنين واحد، احنا الاتنين بنكمل بعض وهنفضل نكمل بعض مهما حصل... كانت الهلاوس كل يوم بعد يوم بتزيد أكتر وأكتر، ولما ببقى أحسن حتى لو للحظات، زي اللحظة دي، بمسك جهاز التسجيل وأحكي، أفكر نفسي أنا مين، أفكر نفسي إن يونس هو شريف وشريف هو يونس ... أفكر نفسي إن شخصية ريماس هي الجانب الحلو اللي كنت بتمنى أشوفه في حنين... و إن شخصية كنزي هي الجانب الإسود في حنين، بس على الأقل هو جانب متكلم... مش جانب جبان... "

ذاكرتي في الوقت الحالي، تشبه إلى حد كبير العين وقت الاستيقاظ، مترددة ورؤيتها غير واضحة أو متزنة تمامًا، العقل لا يعمل جيدًا تمامًا بعد، ذاكرتي تشبه بطارية ريموت تم عضها حتى قاربت على الصراخ....

- أستاذة حنين كانت بتحب الرسم أوي يا باشا، بس كانت دايمًا حزينة...

- ازاي كانت بتحب الرسم وبتسمع أغاني وبتقول عليها حزينة...

- مش كل الرسومات وشوش بتضحك وألوان فرايحي... ولا كل الأغاني حب وهيصة يا باشا

مثل فان جوخ؟!

في عام ١٨٩٠ انتقل فان جوخ إلى قرية "أوفرسرواز" الواقعة في إحدى ضواحي باريس حيث أمضى فيها عامه الأخير.



في تلك القرية اشتد نشاط فان جوخ الفني لدرجة أنه كان يرسم لوحة كل يوم. على الرغم من ذلك، كان فان جوخ يعاني من انتكاسات متتالية، فلا يكاد يخرج من المصح العقلي حتى يدخل مرة أخرى. في شهر يوليو أطلق فان جوخ على نفسه الرصاص، لم تكن الرصاصة قاتلة لكن تلوث الجرح أدى لوفاته بعد ذلك بأيام. قبل محاولة الانتحار بعدة أيام قليلة رسم فان جوخ آخر لوحاته وهي (على أعتاب الخلود)

- مش كئيبة اللوحة دي يا يونس يا حبيبي؟

- مش عجباكي؟ دي فان جوخ يا روحي

- ما هو عشان كدا بقولك دي كئيبة أوي يا روحي.. مش عايزني أجيب لك لوح عليها ورد مثلًا أو عصافير.. أرسم لك لوحة أنا طيب؟

- ارسمي لي حاجة لفان جوخ يا روحي... سيبيني أنا في عيادتي وسط العيانين والكآبة وخليكي انتي مع الورد والعصافير

"دايمًا كنت بلاقي رابط بيني وبين فينسنت، كان شايف إن الحياة ملهاش قيمة من غير حب وفي الواقع هو عمره ما لقي الحب دا، كان شايف نفسه عجوز ورسم نفسه عجوز رغم إنه كان وقتها في التلاتينات، فينسنت شاف كتير، فقر ومرض عقلي وفشل في العلاقات وما حدش عرفه ولا قدر فنه إلا بعد موته... كتير بخاف تبقى نهايتي زي نهايته، كتير بخاف إن الهلاوس والوجع اللي بعيشه كل يوم يبقى سبب لنهاية حياتي اللي ما عدش ليها سبب أعيش ليه..."

***

- يونس... حضرتك كويس؟

- أنا تمام يا تيا... ما تخافيش... شوية لخبطة في حياتي كدا وبعدها هبقى تمام

- ممكن تخليني أساعدك؟



- أنا طول عمري بساعد الناس... وعمري ما عرفت أساعد نفسي

- خليني أحاول... مش يمكن؟

***

كل الذكريات تعود إليّ بالتدريج، العرق والدماء يمتزجان فوق جسدي، قطرات العرق تسيل حتى فمي، مالحة مثل البحر، يقشعر جسدي كله، وأنا أحاول أن أضغط بيدي على رأسي كي أتذكر المزيد، أفكاري في الوقت الحالي تشبه الذباب المحبوس في كوب زجاجي، لا تقدر على الفرار وفي الوقت نفسه ترتطم مرارًا وتكرارًا بالزجاج فيختل توازنها...

" كنت عارف إنها بتروح الفيوم كل يوم، في الأول كانت بتروح عشان تقابله في القصر بتاعه هناك، كنت كتير بقول إن دي مجرد هلاوس، وإن دا جزء من اللي بيجرالي... بس كنت براقبها... بسمعها بتقول لي إنها خارجة تعمل مشوار أو تقابل حد من صحابها وتروح له... مريم نفسها قالت لي إنها شافتهم في يوم في الفيوم، وقلت لها إن حنين بترسم له لوحات للقصر بتاعه وإن في بينهم شغل... بتخونّي ولسه بخاف على شكلها "



عزيزي ثيو

وظيفة الفن هي تقديم المواساة لمن حطمتهم الحياة، وظيفة الفن هي إن تخلق من ضلوع أحزاننا البدايات الجديدة التي تليق بقلوبنا الهشة...

فنسنت



- اشمعنى أنغام يا حنين؟

- عشان بحسها بتغني لي أنا وبس...

- ازاي يا فيلسوفة

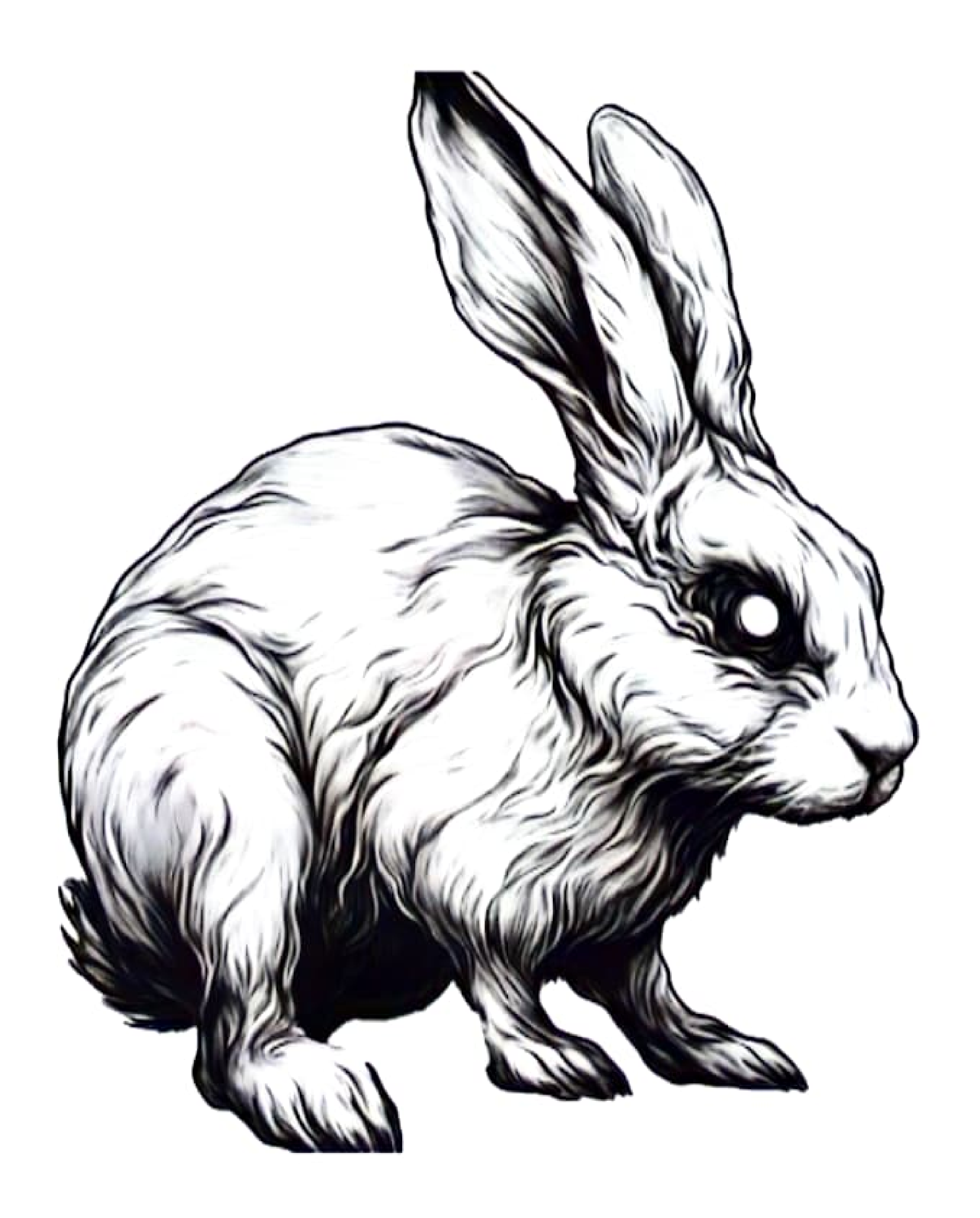
- أنغام صوت العقل والقلب... التوازن اللي احنا عمرنا ما فهمناه يا يونس...

- في حاجات كتير مش بنفهمها يا حنين... مش بس التوازن دا اللي بيبقى بالنسبة لنا شيء مبهم...



الفصل الرابع عشر

لعنتي





كانت خطتي تتضمن الآتي، سأتخلص منه هو في البداية، لا لن أقتلهما هما الاثنين كي يعيشا سويًا في عالم آخر أو لكي ترتاح أرواحهما القذرة، سأقتله هو أولًا كي أراها تتألم وتتعذب، سأريها كل يوم أنني أراها خائنة رخيصة، ولن يمسها مكروه، يكفيني استحقارها لنفسها، يكفيني بؤسها وكرهها للحياة، يكفيني إنها تتنفس هواءً مسمومًا وتعيش في أيام ملعونة، يكفيني أنها لا تعلم ما يجب عليها انتظاره، إن الغد بالنسبة لها يحمل الكثير والكثير من الاحتمالات والتي ستؤدي كلها إلى لقاء الجحيم... جحيمي أنا الشخصي...

عملي السابق كضابط جعلني أكتسب الكثير من العلاقات، والتي لا نعرف أهميتها حتى نحتاج إليها في وقت ما، مثل علاقتي بالريس نونو، والذي عرفته في شبابي حينما كنت أخدم لعدة أشهر في الفيوم، كان بالفعل يصطاد ويطهو أفضل وجبة سمك يمكنك تناولها في حياتك، ولكن الوجبة التي أردته إن يحضر لها لي هذه المرة، كانت مختلفة بعض الشيء...

- اسمع يا نونو، أنت هتجي لي وتبلغ عن اختفاء حنين

- مدام حنين ؟ يا ساتر يا رب... دي كانت لسه عندنا في الفيوم من يومين

- نونو! ... فتح مخك وركز معايا... اللي هقوله ليك دلوقتي عايزك تعمله بالحرف الواحد، و اللي هقوله دا لو طلع لمخلوق تاني... أنا مش محتاج أقولك أنا هعمل إيه

- من غير ما تقول يا يونس باشا... أنا طول عمري الراجل بتاعك ومعاليك عارف دا كويس...

- جدع يا نونو... هو دا العشم يا كبير

***

في دفتر المذكرات الخاص بحنين، تحدثت عن حبها للفيوم، كتبت عن رحلتها اليومية إلى هناك، وعن روحها التي لا تغادر هذا المكان...



بقايا أوراق محروقة لسبب ما لا أعلمه، بعض الأوراق المتبقية تحمل في أحضانها كلمات كفيلة بتعذيبك لأعوام وأعوام...

"في الأول، المكان دا كان بالنسبة لي باب الحياة، اللي لقيت فيه السعادة الحقيقية لأول مرة في حياتي مع حاتم، معاه عرفت يعني إيه أضحك من قلبي، عرفت يعني إيه أعمل كل حاجة في الدنيا بـ **passion**... عمري ما كنت بشوف نفسي إنسانه وحشة أو خاينة عشان دورت على سعادتي مع حد تاني غير يونس باشا شريف، أنا برضه ما أقدرش أقول إني ما حبتش يونس ولا إني ما عشتش معاه أيام حلوة، بس أنا ماكنتش عايزة حد يحبني بطريقته الخاصة على قد ما كنت بحلم بحد يحبني بطريقتي أنا اللي هتخيلني مبسوطة بدماغي وأحلامي... يونس كان ليه طريقته الخاصة في الحب، التفاصيل اللي مش شبه تفاصيل الناس التانية... الكلام اللي كان في أوقات كتير مش بفهمه ولا أستوعبه... وقتها بس عرفت يعني إيه "كيميا"... ساعات العناصر لما تركب على بعض بتنفجر... كل حاجة في قصة يونس كانت مدروسة ومكتوبة بالورقة والقلم... و متحدد ليها كمان ميعاد للرحيل، لما حاتم اختفى من حياتي، أصبح مكانه اللي جمعني بيه هو مكاني بعد كدا، روحه في كل حتة في الفيوم، كنت كل يوم آخد مركب صغيرة وارسم في نص البحيرة وعيني متعلقة على بلاكونة قصره، كان دايمًا جوايا إحساس إنه هيفتح الشباك في مرة ويضحك لي... مش محتاجة حاجة أكتر من الضحكة دي..."

***

أنظر أمامي على المقعد الذي يقابل مكتبي، فأراها جالسة في سكون، ترتدي فستانًا أسودًا طويلًا، تنظر إليّ بعينيها التين كثيرًا ما تغزلت بهما، أراها قبيحة رغم جمالها، أراها أشبه بمسخ لا يستحق أن يعيش وسط النقاء، قامت من مجلسها وجلست فوق المكتب، أشعلت سيجارة وسألتني في هدوء

- ليه عمرك ما لبست الدبلة في إيدك؟



- انتي عارفة إني مش بحب ألبس حاجة في أيدي... بتخنق وبعدين أنا لابسها في سلسلة أهو...

- انت بتتكسف من حبك ليا يا يونس؟

- حبك هو الشيء الوحيد اللي عمري ما فكرت أداريه ثانية واحدة

- طب واشمعنى الخاتم دا بتلبسه؟ عشان من عصفورة؟

لم يكن بيني وبين عصفورة شيء، هي بالفعل عصفورة ضلت الطريق عن مكان العش والأسرة، أصبحت وحيدة في عالم موحش لا يرحم، كانت دائمة السؤال عني وكنت أحدثها مرة أو مرتين في الأسبوع، فقط بدافع الشفقة، لم أخنك يومًا يا حنين ولم أفكر حتى في خيانتك...

في كوابيس الصحو كانت عصفورة تبكي وحدها في غرفة زجاجية بلا أبواب أو نوافذ، أرى الهواء ينفذ من غرفتها رويدا، أرى دموعها وهي تطلب الاستغاثة بلا صوت، مجرد أنين تشعر به ولا تسمعه، أحاول في كوابيسي أن أساعدها على الهرب والحياة، أجرب كسر الزجاج مرارًا وتكرارًا ولكن محاولتي دائمًا تنتهي بفشلٍ مخزٍ...



عزيزي شو

إن الأشخاص الذين لا يقومون بشيء في حياتهم سوى الوقوع في الحب، هم وحدهم الجادون بشأنه، باعتباره واجبًا مقدسًا، أكثر من هؤلاء الذين يضحون بالحب وبقلوبهم من أجل فكرة طارئة، فكن مثلهم ما استطعت....

فنسنت



عانى فان جوخ طوال ١٨ شهراً من اضطرابات نفسية وعقلية بدأت بحادثة قطع أذنه اليسرى، وانتهت بانتحاره في حقول القمح، بإطلاق الرصاص على نفسه، إلا أن الحادثين قد مرا بغموضٍ مثيرٍ للفضول، وحالة من الهذيان رفض على إثرها الإفصاح عمّا حدث...

تم تشخيص حالته عقب الحادثة الأولى بالفصام والاكتئاب وهوس حاد مصحوبًا بهذيان، كما تم تشخيصه بالصرع خلال حياته، ووضع تحت الرعاية النفسية في مستشفى أرل، حيث أمضى فيها الأشهر التالية من حياته، حتى خرج منها طوعًا إلى مصحة مدينة سانت ريمي دو بروفانس، حيث رسم هناك واحدة من أشهر أعماله على الإطلاق، لوحة ليلة النجوم...

أمن الألم يولد الإبداع؟ أمن الحزن يولد الفن؟؟

حتى الأوجاع تحمل داخلها الأسرار؟

***

كان قتله سهلًا حتى وإن كانت المرة الأولى لي، تعاملت مع حاتم كما يتعامل الفنان مع لوحة جديدة لم يمسها لون بعد، تلذذت كثيرًا في قتله، برصاصتين في قلبه، رصاصة من الزوج المكسور ورصاصة أخرى من الصديق المخدوع، قمت بتقطيعه إلى أجزاء كثيرة، أصبح بلا ملامح ولا تكوين، أصبح أي شيء قد نتصوره غير كونه كيانًا بشريًا، كنت سعيدًا وأنا أفعل ما فعلت، حتى أني كنت أدخن وقتها وأستمع إلى الموسيقي، كانت عملية قتله وتشويه كيانه أقرب إلى رسم لوحة سريالية مريضة...

لو كان ما حدث ليلتها مصورًا، لحصل حاتم على الأوسكار التي طالما حلم بها، لو إن مخرجًا كبيرًا شاهده وهو يطلب الرحمة ويبكي ويتمنى فرصة أخرى، لكان قد حصل على عقد احتكار لأفلامه طوال حياته، ولكنه في تلك اللحظة كان وحيدًا مثلما كان يشعر قبل أن يحب زوجتي، وحيدًا مثلما سيكون في البحيرة والتي ألقيت بها ما تبقى منه فيها، وحيدًا كما جعلني وحيدًا...



***

- بس انتي وعدتيني إنك عمرك ما هتمشي... وعدتيني إنك عمرك ما هتبطلي تحبيني

- وانت وعدتني إن التلج عمره ما هيسيح...

- مفيش تلج مش بيسيح... الموضوع متوقف على كمية التلج يا حنين...

***

قتلته في تمهل واستمتاع كالمجنون وفي الليل حملت أشلاءه، كان النونو قد ترك لي مركبًا أمام الشاطئ، أخذتها إلى بقعة خالية من البشر والصيادين، و في أحضان البحيرة استقرت جثة حاتم نور لمسكنها الأخير.. إلى الأبد...

"ماكنتش عايز أقتله، ولا كنت في يوم من الأيام عايز أقتل أي حد أصلًا، مين أنا عشان أسرق من أي مخلوق عمره؟ أنا حتى عمري ما أذيت حيوان أو حشرة ومش عشان أنا ضعيف، بالعكس... بس عشان أنا أقل بكتير من إني آخد خطوة زي دي، حبي لحنين خلاني أعمل حاجات ما تخيلتش في يوم إني ممكن أعملها، حبي لحنين أصبح مع الوقت أذى نفسي؛ ليا ولحياتي ومستقبلي، بعد ما كانت هي في يوم من الأيام حياتي ومستقبلي... فضلت في مكاني بشوف الكيس اللي فيه جثة حاتم بتتحرك لتحت، ببطء وهدوء... و بعد لحظات... أصبح الفنان حاتم نور مجرد كيس اسود مرمي تحت المياه..."

- انت عملت إيه...؟

- انتي عارفة كويس أوي أنا عملت إيه...

- قتلته؟ قتلته يا يونس! ! وما قتلتينيش أنا ليه؟ اقتلني يا يونس باشا! !

توقعت صمتي، توقعت ضعفي تجاه حبها كالعادة، توقعت أن الصياح والغضب سيجعلاني أرتعد خوفًا وهربًا من مواجهتها، و لكني قبلت التحدي في تلك اللحظة، فقط سنتيمترات قليلة تفصلني عنها، ابتسمت تلك



الابتسامة المرعبة وقلت لها:

- هقتلك يا حنين... بس لسه دورك ما جاش...

لم أرَ الخوف في عينيْ حنين من قبل، كانت تلك هي المرة الأولي... وأعتقد الأخيرة أيضًا...

أيام وأسابيع تمر، فصول تتغير وأحداث تحدث للبشر، حنين تفعل نفس الشيء كل يوم، روتين لا يتغير، تستقل سيارة أجرة في صباح كل يوم إلى الفيوم، تذهب إلى عم نونو، تستأجر مركبًا وتظل ترسم حتى الغروب وتعود بعدها إلى المنزل، نعيش تحت سقف واحد وكأن بيني وبينها آلاف الكيلومترات، لا نلقي حتى السلام على بعضنا، ونتحاشى دائمًا النظر في عين بعضنا، أنا أصبحت معتكفًا ما بين المنزل والعيادة، أطلقت لحيتي بفعل الملل وعدم الاكتراث، فأصبحت أشبه برجل خمسيني يواجه الزمن والعمر...

أصبحت كمن يذهبون إلى الحفلات وهم مرغمون على الذهاب، ولكني في تلك الحفلات أقف وحدي دائمًا، لا أواجه الحضور وفي الأغلب أعطيهم ظهري، أحدق في السقف ربما أو أحدق إلى نفسي التي لم أعد أرى انعكاسًا لها في المرايا، وأسأل نفسي هذا السؤال مرارًا وتكرارًا... متى ينتهي كل هذا ؟؟ لماذا لا أقتلها الآن وأستريح...؟!

في يوم من الأيام قرأت قصيدة لم أكن قد قرأتها من قبل لهشام الجخ، شاعري المفضل على الإطلاق، وكأنه كان يحكي قصتي مع حنين من خلال كلماته، قصيدة "لقطة الفراق"...

"ورغم الاختلاف الكلي في المظهر وفي المضمون... لكنه حبها بجنون كان عاشق وكان مهووس... وكلمة حب أياميها كانت بفلوس"

- ما بتحسش ساعات إننا مش شبه بعض يا يونس؟

- انتي فيكي كل الحاجات اللي كنت برسمها في فتاة أحلامي... عمري ما



اتمنيت أكتر من كدا...

"يا بنت النعمة... كان عاشق ما تخسريهوش... مش هتحسي وانتي فى ضله دلوقتي. ما تتغريش بضحكه يوم ما فارقتي... دي بس وشوش... ما تسيبيهوش"

- كل يوم بيعدي معاكي بيخليني أتأكد أكتر وأكتر إن كل قرار خدته زمان كان غلط وإن وجودك هي الخطوة الأولى الصح في حياتي...

- مش هتندم؟

- أنا هندم لو ما اتجوزناش دلوقتي حالا... بحبك أوي

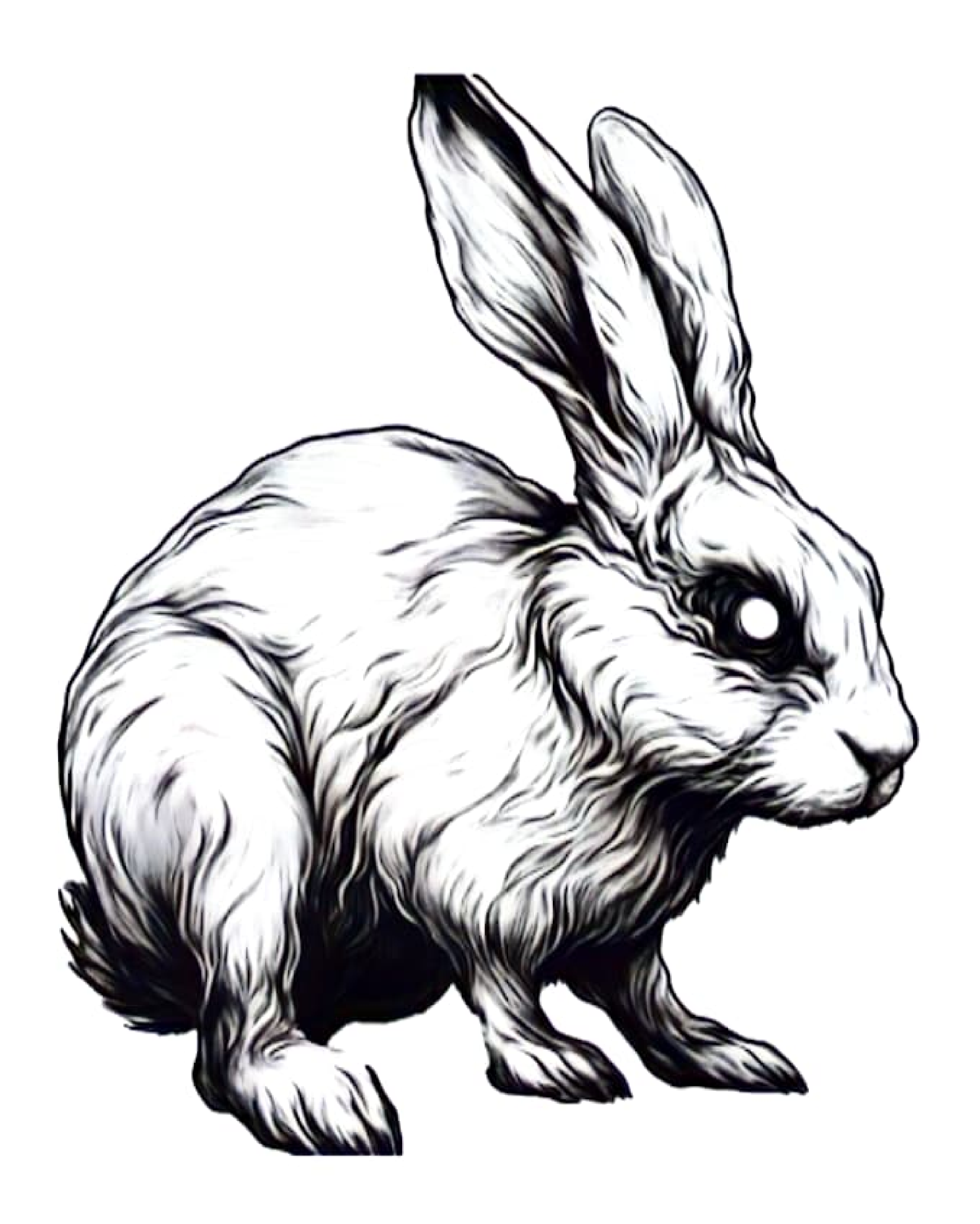
"ساعة الفرقة كان هو عينيه أحزان وواقف هادي وبيضحك ومن جواه حمم بركان و كانت هي مبتسمة... كانت عيلة لسه... و بتدور ما بين أصحابها فى الجامعة على الفرسان"

- كفاية بقى يا حنين ! كفاية! ! ! !



الفصل الخامس عشر

البداية





أصرخ! ! فأفيق مرة أخرى ! ! ولكن تلك المرة في مكان آخر! ! ليس المنزل ولا العيادة... أهي مستشفى؟ سجن ؟ أهي مصحة! ! ! ! ! مصحة! !

لا أتذكر تحديدًا متى جئت إلى هنا، أسأل نفسي، كيف انتهى بي المطاف في تلك الغرفة الموحشة، سرير بالٍ، مقعد ملتصق بالأرض، كوب معدني فارغ وطبق معدني به شيء أشبه بالطعام، أنظر إلى يدي، لا يوجد آثار للدم، أرتدي زيًا أشبه بملابس المختلين عقليًا، على الأرض لا يوجد سوى دلو كبير والكثير والكثير من أقلام الطباشير، قلم صغير من الرصاص والكثير من الأوراق والتي تم طي معظمها على شكل جواب، كيف أتيت إلى هنا؟ ماذا أفعل في هذا المكان؟... ألم أنفذ الجريمة الكاملة؟... أغمض عيني مرة أخرى وأحاول أن أتذكر يوم الانتقام...

كانت الخطة محكمة، ذهبت هذا الصباح وراءها إلى الفيوم، كنت قد غيرت كل الأوراق الرسمية الخاصة بها إلى اسم آخر "ريماس"، البطاقة وعقد الزواج، حتى إنني وضعت اهتمامي في كل التفاصيل الصغيرة، قلم صغير ابتعته ونقشت عليه اسم ريماس، نسخ من كتبي في علم النفس تحمل إهداء إلي "من علمتني معنى الحياة... زوجتي ريماس"، تذكرة سفر باسم ريماس إلى أسوان، اهتممت بكل شيء، يعلم النونو ما عليه فعله، سأذهب خلفها إلى الفيوم، سأقتلها بيدي، سيخفي النونو جثتها لعدة أيام، سيهرول إلي في العيادة، يطلب مساعدتي كمعرفة قديمة وكوني ضابطًا سابقًا، سأطمئنه وأخبره إنني سأفعل ما في وسعي لمساعدته، ستظهر فتاة في يوم من الأيام تدعى "تقى" تخبرني إنها أخت حنين، ستكون تلك الفتاة هي "تيا" والتي اتفقنا ذات ليلة إننا سننتقم ممن آذونا وسلب منا السعادة والحياة، سأساعدها في التخلص من هادي، وستاسعدني بفقرة صغيرة في الظهور كضيفة شرف في فيلم "نهاية حنين" فقط لتبدو القصة واقعية أكثر وأكثر، سأطلب صديقًا قديمًا، ضابطًا في الشرطة اسمه هيثم، كان قد أقام لي ليلة نوبية بمناسبة زواجي ذات يوم، والوحيد الذي يعرف قصتي وقرر مساعدتي، سأطلب منه أن يبحث في السجلات عن فتاة تدعى "حنين"، سأعطيه رقمها وصورتها لكنه بالطبع لن يعثر على أي شيء، بعد عدة أيام سيجد النونو جثة

حنين أمام البحيرة، ملامح مشوهة، وأنا في الواقع لم أكن مطلقًا قريبًا مما يحدث، ستعثر القوات عليها، سيقيد الحادث ضد مجهول، أخيرًا سيشفى غليلي وأعود إلى حياتي وسعادتي مرة أخرى .... أخيرًا...

و لكن، كيف أكون في هذا المكان الآن؟ كيف وقد نفّذت خطتي بالكامل، أضرب باب غرفتي الزجاجي بالمصحة بيدي وقدمي، أصرخ كثيرًا حتى يظهر أمامي شاب يرتدي بالطو أبيض ويبدو أنه حديث التخرج من هيئته، ينظر إليّ بلا اكتراث وينتظرني أن أقول شيئًا...

- انا بعمل إيه هنا؟

- مالك يا عم فينسنت، ما انت كنت حلو الأسبوع اللي فات كله وقاعد بترسم وجميل

- فينسنت مين؟ أنا اسمي يونس...

- يا سيدي عارفين إنك اسمك يونس وكنت دكتور قبل ما تيجي هنا، بس انت اللي بتحب اسم فينسنت دا... ما تصدعنيش بقى، كنت عايز حاجة؟

- أنا بعمل إيه هنا؟! !

- بتصيف! ! روح نام بقى ولا تخبط لك شوية على الحيطة! !

تركني هذا اللعين ورحل، رحل تاركًا علامات استفهام كثيرة وعقلًا يستشيط غضبًا وخوفا! ! هل كُشف أمري؟ هل هناك من يراقبني؟ أفعلت تيا أو هيثم أو ربما النونو أي شيء قد يضرني؟ أريد أن أعرف! ! أريد الإجابات! ! أين أنت الآن يا زيتون عندما أريدك حقًا! !

- و أنا من إمتى مشيت يا يونس؟

- أنا إيه اللي جابني هنا؟

- انت يا يونس... إنت اللي جبت نفسك هنا مش أي حد غيرك...

- بلاش ألغاز دلوقتي يا زيتون وفهمني... أرجوك

لا أشعر بأطرافي كما ينبغي، قدماي ترتعشان وأنا في مجلسي، يدي ضعيفة واهنة، وعقلي يجاهد نفسه لكي يتمكن من مساعدتي، المكان قاتم، الإضائة النيون بين كل غرفة وغرفة تصيبني بالجنون وألم قاتل في عيني، زيتون يجلس أمامي في كل ثقة، يدخن سيجاره الفاخر في هدوء، قال إن عليه الرحيل، قال إن دوره في قصتي قد انتهى، قال إنني أحتاج إلى نفسي أكثر من أحتياجي إليه، أنظر حولي فأجد العشرات من الرسومات على الحائط، أبدأ في قراءة الأوراق التي تغطي الغرفة، كلها موجهة لشخص ما يدعو "ثيو" وكلها موقع بخطي الذي أعرفه جيدًا ولكن باسم آخر، موقعة باسم "فينسنت"... فينسنت؟...

طوال حياتي وأنا لم أعشق فنانًا أو رسامًا على وجه التحديد مثلما عشقت فينسنت فان جوخ، كنت دومًا أرى نفسي وألمي في حياته وأوجاعه، في طفولتي كان لكل منا في المدرسة اسمًا، طفل يسمي نفسه الملك على سبيل المثال لولعه بمحمد منير، أحدهم يسمي نفسه الزعيم لاعتقاده أنه يشبه عادل أمام، أما أنا فقد أسميت نفسي "فينسنت"، يونس الذي يريد أن يصبح فنانًا ويعشق هذا الرجل الغريب والذي لم أكن أعرف شيئًا عنه وقتها غير أنه الرسام المختل الذي قطع أذنه وأهداها إلى واحدة من حبيباته، رأيته شخصًا مختلفًا يعشق بطريقة مختلفة، كان لفان جوخ أخًا يدعو "ثيو" كان هو كل شيء له في الحياة تقريبًا وكتب له العديد والعديد من الرسائل في أعوامه الأخيرة، تعتبر رسائل فان جوخ خير شاهد على جميع لحظات ومراحل حياته، أخوه ثيو الذي كان يساعده بلا كلل ولا ملل وبجميع الطرائق الممكنة، والذي لم يفقد الثقة به يومًا من الأيام، والذي لم يتحمل البقاء بعده حيًا، فمات بعد أقل من ستة أشهر من موت أخيه بعد أن تدهور عقليا وبدنيًا...

لماذا لم تحبني مثلما أحبّ ثيو أخيه؟

لماذا فقَدتِ الإيمان بي؟



مرت عدة أيام وأنا لا أغادر غرفتي بالمصحة، أفقد الشعور بالوقت والأيام، أفقد الشعور في المطلق حتى، لا أتناول الطعام ولا أنام، فقدت الكثير من وزني، أصبحت شاحب اللون، لا يكلمني أحد، حتى هذا الممرض الأصلع، يضع الطعام والمياه في صمت ويغادر...

يخرجونا من الغرف مرة واحدة في الأسبوع إذا كانت حساباتي صحيحة، أرى هؤلاء المرضى البائسين والذين تركهم أهاليهم في هذا المكان المخيف البارد، مكان حتى كوابيسي تعجز عن خلق مثله في خيالي، ما إن ترى إطلالة حتى تقفز إلى ذهنك فورًا جميع قصص الرعب والأشباح التي قرأت عنها أو شاهدتها في حياتك. مبنى قديم تحول هو نفسه إلى شبح...

جدرانه الكئيبة المظلمة اعتصرت أرواح آلاف البشر، وتمضي هائمة على وجهها بين الطوابق والردهات الخاوية التي تنبعث منها رائحة المرض والموت، أشباح حائرة طالما أدخلت الهلع إلى قلوب المرضى الحاليين الذين ينتظرون نهايتهم بفارغ الصبر.

أسمع أحاديث المرضى في الفناء، يحكون فيما بينهم أنهم سمعوا أصوات أطفال تصدر من سطح المبنى، أصوات تترنم بأغانٍ غير مفهومة وضحكات مرعبة كأنها صادرة عن مجموعة من الأطفال يلعبون ويمرحون، أحاول ألا أكترث لما أسمع وأن أحاول جاهدًا أن أدرس المكان جيدًا، أحاول أن أكتشفه عندما تسمح لي الفرصة...

بعض الأعمال القبيحة تحدث في تلك المصحة، أشخاص يختفون وجثث تتبخر بين ليلة وضحاها، أرى من نافذتي سيارة قديمة سوداء من النوع الذي كان يستعمل لنقل الجثث، تظهر في بعض الليالي، ثم يظهر رجلان يبدآن برمي التوابيت إلى داخل السيارة، أرى أموالًا تدفع وابتسامات تلمع في ستر الليل، هناك أعمال قذرة تحدث في هذا المكان اللعين...

مرت عدة أيام أخرى ، وجدت هذا الطبيب البغيض مرة أخرى ، يدق الباب الزجاجي بيده ويخبرني أن لدي زائر يريد مقابلتي، قمت من مكاني بصعوبة ومشيت أمامه حتى أدخلني غرفة مظلمة لا توجد بها سوى لمبة



صغيرة، جلست حتى فتح الباب مرة أخرى ودخلت هي وجلست أمامي، ابتسمت في شر، ابتسامةً أتذكرها جيدًا، ابتسامة تعلّمتها هي مني، عيني ثابتة في خوف وعدم فهم، حلقي أشبه بصحراء ميتة، ابتلعت ريقي بصعوبة وأول ما نطقت به كان اسمها...

- حنين! !

هي مازالت على قيد الحياة؟ كيف؟ كيف ؟؟

- مستغرب ؟ ما تخافش انت ما بحلمش

- هو... هو مش انتي.........؟

- اتقتلت؟ مش كل كوابيسك مكتوب لها تموت أوام كدا يا يونس باشا

"الهلوسة هي الإحساس بمحسوس مش موجود... الهلوسة هي أكتر حاجة بترعبني في الحقيقة"

قامت من مكانها وأخرجت من حقيبتها العشرات من علب الأدوية المختلفة، أدركت على الفور إن جميعها أدوية نفسية، عقار الدوكسيبين لعلاج الاكتئاب، الديفينهيدرامين الذي يساعد على النوم، الكيتامين، عقار أوكسي بوتينين لعلاج سلس البول وغيرهم، كلها عقاقير يجب التعامل معها بحذر وتحت إشراف الطبيب، الإفراط في تلك الأدوية وعلى المدى البعيد يؤدي إلى هلوسة وانفصام واكتئاب ويؤدي إلى الانتحار في بعض الحالات...

- إيه الأدوية دي؟ بتعملي بيهم إيه؟

- دي أدويتك يا حبيبي

تقسم المواد المحرضة للهلوسة عادة إلى فئتين، محرضات الهلوسة الكلاسيكية، والأدوية التفارقية وهي أدوية تشوش إدراك المتعاطي للصورة والصوت وتولد إحساسًا بالانفصال عن المحيط والذات، وقد تولد اضطرابات نفسية مثل اضطراب تعدد الشخصية والسكيزوفرينيا...



- أدويتي يعني إيه؟... أنا مش فاهم...

- يعني انت بتاخد الأدوية دي من يوم ما رجعنا من أسوان، في أكلك وشربك دايمًا فيه جرعة من الأدوية دي، كل كوابيسك وجنانك دا إنا السبب فيه، وطبعًا مش بديلك أي معايير وخلاص، أنا برضه مش عايزاك تموت زي ما انت كنت عايز تموتني، أنا مبسوطة أوي كدا وانا شيفاك زي المجانين اللي مش عارفين هما مين ولا بيعملوا إيه... معظم الأحداث اللي بتحصل لك من يوم ما رجعنا من أسوان هي أحداث بتحصل جوه دماغك، أنا اللي خليتك تخسر شغلك وخليتك تشوف حاجات مش بتحصل غير في خيالك المريض... إنت بقيت هش يا دكتور يونس، بقيت مكسور...

- عشان كدا بدأت أفتكر اليومين دول؟ عشان انتي بعيد والجرعة بقالها فترة مش بتتاخد، ازاي عمري ما خدت بالي...

- آخر واحد بيعرف إنه مريض...

- هو المريض نفسه... صح... بس ليه؟ أنا عملت لك إيه؟

ضحكت هي والدموع تسيل من عينيها، لملمت العقاقير في حقيبتها وأخرجت صورة وضعتها أمامي، بدأت دقات قلبي في التزايد عند رؤيتي الصورة، صورة قد محيتها من حياتي وذاكرتي منذ سنوات، صورة ياسمين...!!

- فاكر اللي في الصورة دي؟ فاكر ياسمين؟

- انتي جبتي الصورة دي منين؟ انتي مين؟! !

- إيه يا دكتور يونس، أنا مراتك... يمكن دي الحقيقة الوحيدة في حياتك المريضة، و اللي في الصورة دي ياسمين... مراتك برضه! ! ولا نسيت؟





ياسمين الفخراني، حبي الأول والشخص الذي لولاه لما درست علم النفس واهتممت به، كانت تعشقني حق العشق وتضعني في منزلة أعلم جيدًا أنني لا أستحقها، كنت ضابطًا حديث التخرج وكانت هي الصدفة الأجمل في حياتي، لا أعلم حقًا ارتباط علاقاتي بالقهوة، كنت في هذا الكافيه صباح أحد الأيام أتناول النسكافيه اليومي قبل ذهابي إلى القسم، رأيتها جالسة تقرأ كتابًا عن علم النفس، لا أعلم حقًا كيف فعلت هذا ولكني ذهبت إليها وابتسمت، وسألتها عن محتوى الكتاب، تعجبت أنها لم تصدني أو توبخني، كانت ياسمين تفترض حسن النية في كل الناس وكل الأفعال، تحدثنا كثيرا وفي نهاية حديثنا أدركت أنني لن أستطيع أن أعيش يومًا واحدًا بدونها...

أخبرتني أنها تعشق الريف، كل ما تتمنى في حياتها هو أن نعيش في منزل في الريف، نرعى الحيوانات ونزرع ونحيا حياة بسيطة لا تشوبها أي نوع من المشاكل...

- في يوم من الأيام هيبقى عندنا مزرعة زي اللي على الطريق دي

قلتها وأنا أشير إليها على مزرعة شديدة الجمال، كانت هي تسرح في تفاصيل تلك المزرعة كلما مررنا من هناك

- هتسيب شغلك وحياتك وتقعد تزرع وتربي فراخ وبقر وكلاب؟

- دي حاجة نفسنا فيها أنا وانتي من زمان... وبعدين كفاية إننا هنبقى مع بعض

- فعلًا هتعمل دا عشاني؟

- أنا مستعد أعمل أي حاجة عشانك يا ياسمين

كانت رقيقة، طيبتها لا وصف لها وحنانها يملأ ويشمل كل شيء، ولكني ما زلت لا أفهم ماذا يحدث؟! !

- مشكلتك يا يونس إنك فاكر نفسك العبقري الوحيد في الكوكب دا



- ياسمين تبقى أختي يا يونس... أختي اللي انت دمرتها... كل اللي بيحصل فيك دا عشان حق ياسمين اللي ضاع...

- أنا حبيت ياسمين.... وحبيتك...

- انت عمرك ما حبيت حد يا يونس، إنت عندك هوس الامتلاك... بتتعامل مع البشر على إنهم ممتلكات خاصة مش أرواح من لحم ودم

نعم، إنها لا تكذب، يونس شريف تعود أن يعامل البشر كممتلكات، ليس لأنه شخصٌ سيء، فقط لأنه يقدر قيمة الأشخاص، فقط لأنه يعلم إن الحب غالٍ ونادر الوجود، تزوجت من ياسمين، أخبرتني قبل زواجنا إن لديها أختاً واحدة تعيش في الخارج، لم أهتم ولم أكترث لمعرفة أختها حتى أو التعرف عليها، تزوجتها واشتريت لها المزرعة التي كانت تحلم بها، حيوانات أليفة في كل مكان...

حيوانات أليفة تشبه تلك الأقنعة التي كانت تراودني في كوابيسي، ، تذكرت لحظتها تلك المرة التي رأيت إلى جانب حنين امرأة ترتدي رأس أرنب وتحمل في يدها سكيناً، كانت تراودني أحلام رؤوس الحيوانات كثيراً والآن فقط عرفت سببها، هم تلك الحيوانات التي كانت تحبهم ياسمين، الأرانب والكلاب والقطط وغيرهم، أرى تجسداً لضميري في هؤلاء المقنعين، أرى كوابيسي تتحول إلى واقع حاولت كثيراً الفرار منه...

تزوجتها وعشنا حياة جميلة بسيطة، كانت لا تتمنى سوى إرضائي، لا تبحث إلا عن سعادتي، ولكن أليس الملل هو عدو كل العلاقات السعيدة؟ هي أرادت أن يصبح لها حياة، أرادت أن تعمل وتعيش حياتها كإنسان، وأنا الذي اعتاد على العودة كل يوم فأجدها بانتظاري لا يوجد شيء في حياتها سواي، فتعاملت مع الأمر كأنه أمر واقع، بدأت المشاكل، بدأت الوردة في الذبول والحزن، لا أكترث ولا أبالي، أقيدها باسم الحب، أقسو عليها باسم الحب وأجرحها باسم الحب...

- فضلت حابسها في المزرعة يا يونس، كانت بتطلب منك إنها تنزل



وتعيش حياتها زي أي حد، بس إنت بقى وجودها جنبك دا أمر واقع مستحيل تغيره، كانت كل يوم بتكلمني وهي لوحدها وتعيط بالساعات، كانت بتحبك وكانت بتكره حياتها بسببك، قبل ما ياسمين تموت بيوم واحد كلمتني وقالت لي إنها حاسة إن النهاية قربت أوي، كنت مرعوبة عليها وعايزة أطمنها بس ما عرفتش... كل اللي عرفته بعد كدا أو اللي قدرت أوصل له إنك لما روحت البيت اليوم دا لقيتها واقعة جوه البير... التقارير كلها بترجح إنها داخت ووقعت... دلوقتي فرصتك عشان تقول الحقيقة...

- أنا ما قتلتش ياسمين... مستحيل أعمل كدا

- إيه اللي حصل اليوم دا يا يونس...؟

- رجعت من الشغل... لقيت ياسمين لمت هدومها ومستنياني عشان تقول لي إنها هتمشي ومش راجعة، فضلت أتكلم معاها كتير بس هي كانت رافضة إنها تسمعني، طلعت تجري، مسكت إيدها وقلت لها إني بحبها، طلبت منها إنها ما تمشيش وتسبني، فضلت تزعق فزقيتها، اتخبطت رجلها في البير ووقعت جواه، لما خرجتها كانت ماتت...

- قتلتها عشان تعبت من العيشة معاك...

- ما قتلتهاش... والله كان غصب عني

- عارف يا يونس... أنا لما رجعت وقررت إني أنتقم ليها... إديتك فرصة بجد وفي أوقات كتير كنت بشوفك إنسان بجد، بس إنت دايمًا بتحب نفسك أكتر من أي حاجة تانية، مشاكل يونس وأحلام يونس وكوابيس يونس... يونس عمره ما حب إلا يونس. حتى لما قرر إنه يعالج حد بجد... قرر برضه إنه يسمع ليونس وخلق له شخصية شريف عشان مايحسش إنه مختل...

- أنا حبيتك... وانتي خنتي...

- إنت لسه مقتنع إني خنتك يا يونس؟ يونس كل دي هلاوس جوه خيالك! ! أنا خليتك تشوف اللي أنا عايزاك تشوفه! ! حاتم نور صاحبي



وأخويا من زمان، أنا اللي أقنعتك إني بحبه وأنا اللي قلت له يجيلك العيادة ويعمل فيها مريض، كل دا كان ترتيبي...

- أول مرة آخد بالي إن عينيكي تشبه عينيها...

- إنت حبيتني عشان كنت بفكرك بيها يا يونس

ابتسمت لها في ذهول وصفقت لها، صفقت لهذا العقل المدبر العبقري، صفقت لها على هذا الدهاء والمكر، صفقت لها لأنها حاربتني بنفس أسلحتي...

- عيشتي معايا الكام سنة اللي فاتوا دول عشان تاخدي حق أختك؟ أختك اللي أنا ما قتلتهاش...

- تقدر تقول كنت بوفيها حقها، كفاية إني كنت بعيدة عنها سنين، كان سهل إني أعمل أي شيء يوجعك أو حتى أخلي حد يقتلك، بس أنا قلت أخليك تعيش في كوابيس وانت صاحي يا يونس، تشوف نفسك وانت بتخسر كل حاجة قدام عينيك، الأول شغلك وبعدها قلبك وبعدها عيادتك ودلوقتي عقلك اللي مافضلش فيه كتير

- إزاي ماخدتش بالي... ازاي خبيتي كل دا جواكي وانتي في حضني؟

- سر التلاتة سر الجميع يا دكتور... و شكرًا على إنك اتنازلت عن كل حاجتك ليا، أدوية الهلوسة دي عظيمة بصراحة، البيت والعيادة والعربية... بس ما تخافش أنا هفضل أدفع لك فلوس المصحة... وخارجتك كان عليا قريب أوي...

اقتربت مني وابتسمت في انتصار، وقفت أمامها وانحنيت لها في تبجيل، نظرت في عينيها وشبح ابتسامة يظهر على وجهي، تذكرت في تلك اللحظة كل ما مر بي وبها في قصتنا الحزينة، أحداث تمر أمامي مثل شريط السينما، فيلم سينما مدته عدة سنوات، لا استراحة به ولا وقت مستقطع لالتقاط الأنفاس من الأحداث المتلاحقة، أتذكر فنجان القهوة اللعين



والذي بدأت كل تلك القصة معه، أتذكر ابتسامتي الراحلة وضحكتي التي لاقت حتفها منذ فترة، أتذكر حتى ياسمين، النسخة الأصغر والأنقى والأطهر من حنين، احتضنتها رغم كل شيء كأني أودعها الوداع الأخير.

ضممتها إلى صدري وأنا أغني لها في حزن، تلك الأغنية التي غنيتها لها يوم زفافنا

"ع الشط استنى رايحة فين، دا أنا ليكي بغني غنوتين، غنوة عن الآهة والحنين، وغنوة لعينيكي يا حنين"

أخرجت من جيبي القلم الرصاص الصغير الذي أرسم به في غرفتي وطعنتها به في رقبتها الجميلة، سقطت على الأرض تنظر لي وهي غير مصدقة والدماء تنبثق من عنقها، تلك المرة الدماء حقيقية تمامًا، والتي لم أقتلها لكونها خائنة، أقتلها الآن لعشرات الأسباب...

أنظر إلى آخر الغرفة، أراه جالسًا في سعادة وينظر إلي في فخر، ابتسمت له وأنا أمسح الدماء من على وجهي

- كنت عارف إنك مش هتسيبني

- احنا قدرنا واحد يا يونس... ملناش غير بعض

***

خرجت من الغرفة وكل جزء مني مغطى بالدماء، القلم ما زال في يدي وقد تحول لونه إلى الأحمر الداكن، لابد وأننا في الليل، لا توجد آثار لأي شخص مستيقظ، لا أثر لصوت جهاز الكهرباء ولنحيب المرضى...

كان الهروب من المستشفى أسهل مما تخيلت، لا حراسة ولا طاقم تمريض مسائي، كم تمنيت أن ألتقي الطبيب البغيض أثناء خروجي، لكان قد تذوق طعم القلم الرصاص في عنقه هو الآخر، لن يموت اليوم ولكن سيكون لديه الكثير ليحكيه ويبرره للشرطة...

- عايز أبلغ عن مصحة شغالة في سرقة الأعضاء البشرية... فاعل خير...



***

بدأت قدماي في التحرر من مرضها في غضون ساعات، يداي تساعداني فأتحرك أسرع، جريت في الشارع ولم يكترث أحد لي، نعيش في مجتمع لا يبالي كثيرًا بالمجاذيب، مجتمع لا يهمه هؤلاء الجالسين على الأرصفة يكلمون أنفسهم ويلقون الحجارة على الناس ويأكلون من صفائح القمامة، أصبحت أشبههم، لم أشعر بنفسي إلا عندما دلفت القطار المتجه إلى أسوان وجلست لأستعيد توازني وألتقط أنفاسي، لم يسألني الكمسري حتى عن تذكرة أو مال، تركني لحالي وأنا أضحك في داخلي...

وصلت إلى أسوان صباح اليوم التالي، قدماي متشققتان بسبب كوني حافي القدمين ومشيت لساعات تحت الشمس الحارقة حتى وصلت إلى مدخل قرية السماحة، رأيتها جالسة أمام منزلها تنظر إلى السماء، انعكاس ضوء الشمس على بشرتها زادها جمالًا وسحرًا، ما زالت جميلة لم يتغير بها شيئًا حتى بعد مرور تلك السنوات، تلاقت أعيننا، أظنها عرفتني حتى بعدما تغير شكلي وحالي، ذقن طويلة وجسد شديد النحافة ولكن عيني لم تتغير، قلبي يريد قبلة الحياة وعقلي يطلب العون والمدد، وهي... حور عين ضلت طريقها في السماء لتصبح هنا أمامي، قامت من مكانها وعيناها معلقتان بي، اقتربت منها، أريد أن ألقي بنفسي في أحضانها ولكن لا بأس، سأنتظر الوقت المناسب، لأحكي لها أيضًا عن كل شيء، سأحكي لها عن حنين وقصتنا، سأحكي لها عن مريم وتيا ومشروعهما، سأحكي لها عن ياسمين، و سأحكي لها عن زيتون، سأحكي لها عن الضابط الذي أصبح طبيبًا والطبيب الذي بدأ يتعلم كيف يصبح إنسانًا، سأحكي لها عن الأوائل وعن البدايات...

- يونس باشا... أنا افتكرتك نسيتني...

- بقالي سنين فاهم إني بعرف أطير... ما كنتش عارف إن عصفورة بس اللي جناحتها تقدر تخليني أطير...



- أنا مش فاهمة أي حاجة

- هتفهمي... هحكي لك حكاية طويلة أوي... فضي لي نفسك بقى

- محتاجني قد إيه؟

- يا ريت تفضي نفسك العمر كله...



عزيزي ثيو،

اعلم الآن أنني لست بفينسنت وأن كل تلك الرسائل كتبتها كيونس إلى نفسي ليس إلا، بدأت في التعافي، وجدت نفسي هنا في أسوان، أستعيد حياتي مرة أخرى ، حياتي التي قد نسيتها ووضعتها في صندوق من الجليد حتى تجمدت، لم أعد أستمع إلى أنغام، سآخذ عصفورة الليلة إلى السينما، ستكون هي المرة الأولى لها لتشاهد فيلمًا في دار عرض، فيلم بطله فنان أحبه كثيرًا اسمه حاتم نور، أصبح نجمه ساطعًا للغاية، و لكني أعلم إن هذا لن يدوم طويلًا، سأبقى هنا لبعض الوقت، و لكني سأعود مرة أخرى ، سأعود "يونس باشا شريف المخاوي" مرة أخرى ووقتها سيكون للانتقام مذاق آخر، سأعود إلى تلك المصحة لكشف سرها... أما الآن، سأغرد مع عصفورتي في سماء الربيع...

يونس شريف



عن الكاتب:

- كاتب مصري من مواليد الإسكندرية ١٩٩٢
- تخرج من كلية الإعلام قسم إذاعة وتلفزيون
- حاصل على بكالوريوس الإعلام من جامعة **Bedfordshire** البريطانية
- صدر له ١٠ أعمال أدبية
- يعمل في مجال التسويق والإعلانات كمدير ابداعي ومعد للبرامج
- كتب للتلفزيون (المخبر - راجل و٢ ستات)
- كتب برامج اونلاين (كراكيب - حواديت نص الليل)
- كتب واخرج العديد من الإعلانات
- كتب مقالات في بعض الصحف الإلكترونية
- تصدرت روايته "كوابيس قبل النوم" قائمة الأكثر مبيعا وتُرجمت الى الانجليزية
- تصدرت رواياته في حضرة الموت والسكان الأصليين للقلب قائمة الأكثر مبيعا

صدر للكاتب:

- حنين اضطراري
- آخر أيام آدم
- زي كل سنة
- كوابيس قبل النوم ١ (تُرجمت للإنجليزية)
- كوابيس قبل النوم ٢



- في حضرة الموت

- بتوقيت الفراق

- السكان الأصليين للقلب

- اختفاء السيد ديفينهايم (ترجمة)

- كوابيس قبل النوم ٣

للتواصل مع الكاتب..



